1.النفخ في الصور	2.الموقف	3.الحشر	4.الشفاعة	5.العرض والحساب.	6.تطاير الصحف	7.الميزان	8.الحوض	9.الصراط	10. القنطرة

قال رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يبغض كل عالم بالدنيا جاهل بالآخرة». صحيح الجامع رقم: 1879

1. النفخ في الصور

قال الله تعالى:

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾ [الزمر: 68].

ومعنى الصور في لغة العرب: القرن، وهو شبه البوق، ولما سئل رسول الله ﷺ عن الصور، قال : «قرن يُنفَخ فيه». صحيح: السلسلة الصحيحة رقم: 1080

والصور هو الناقور الذي جاء في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ﴾

من ينفخ فيه؟!

إسرافيل هو الموكَّل بالنفخ في الصور، وهذه مهمتة الرئيسة ووظيفته الأولى، وقد شرح رسول الله ﷺ حالة التأهب القصوى التي عليها إسرافيل، واستعداده الشديد لتلقي الأمر الإلهي بالنفخ في الصور، فقال ﷺ:

«**إن طرَف صاحب الصور منذ وُكِّل به مستعدٌ ينظر نحو العرش، مخافة أن يؤمَر قبل أن يرتدَّ إليه طرفه، كأنَّ عينيه كوكبان دُرِّيان**». صحيح: رواه الحاكم عن أبي هريرة كما في السلسلة الصحيحة رقم: 1078

يموت الخلق كلهم بعد النفخة الأولى، ثم يُنفَخ في الصور مرة أخرى، فيقومون لرب العالمين، وهاتان النفختان اسمها الراجفة والرادفة كما في قوله تعالى:

﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾

فالراجفة: النفخة الأولى، وسُمِّيت بذلك؛ لأن الكون كله يرجف ويتزلزل عندها، والراجفة تميت الأحياء إلا من شاء الله حتى يكون آخر من يموت: ملك الموت.

والرادفة: النفخة الثانية، وسُمِّيَت كذلك لأنها تردف النفخة للأولى أي تأتي بعدها، والرادفة نفخة تحيي الأموات، حيث يكون أول من يُحيي الله إسرافيل، الذي ينفخ النفخة الثانية ليبعث الخلق.

وفي هذا دلالة على عظم خلق إسرافيل عليه السلام؛ فبصيحة واحدة منه يموت كل من في السماوات والأرض، وبنفخة أخرى يبعث الله الحياة في كل الخلق ليحشروا إلى أرض المحشر.

وقد كان النبي ﷺ يذكِّر الصحابة كل يوم بهاتين الصيحتين، نعم .. كل يوم؟! فعن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ إذا ذهب ثلثا الليل قام فقال:

«**يا أيها الناس! اذكروا الله، اذكروا الله، جاءت الراجفة، تتبعها الرادفة، جاء الموت بما فيه، جاء الموت بما فيه**».

صحيح: رواه الترمذي والحاكم كما في صحيح الجامع رقم: 7863

وأن يكون هذا التذكير النبوي يوميا مما يدل على أهميته الشديدة، وينم عن حرص نبوي شديد على الأمة والشفقة البالغة، وإن لم يكتب الله لنا أن نعيش حتى ندرك الصيحة الأولى، فحتما سيدركنا الموت، فهل استعددنا لما بعد الموت؟!

كم بين النفختين؟!

في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعا: «ما بين النفختين أربعون».

قالوا: يا أبا هريرة، أربعون يوما؟

قال: أبيت.

قالوا: أربعون شهرًا.

قال: أبيت.

قالوا: أربعون عاما؟

قال أبيت.

صحيح: رواه مسلم عن أبي هريرة كما في صحيح مسلم رقم: 2955

قال النووي:

«ومعنى قول أبي هريرة (أبيت) أي أبيت أن أجزم أن المراد أربعون يوما أو سنة أو شهرا، بل الذي أجزم به أنها أربعون مجملة».

من أول من يسمع النفخة الأولى؟!

قال رسول الله ﷺ:

«**وأَوَّلُ مَنْ يَسْمَعُه رَجُلٌ يلوط حَوْضَ إبِلِه فيُصْعَق ويُصْعَق النَّاس حوله**».

وحال هذا الرجل الذي يُصعَق يوحي بأن نفخة الصور تأخذ الناس على حين غِرَّة، وهم لاهون عنها وغارقون في الغفلة، وهذا موافق لما ورد في الحديث الصحيح أن الساعة لا تقوم إلا على شرار الناس.

قال ﷺ:

«**ثم يُنزل الله من السماء ماء، فينبتون كما ينبت البقل، ليس من الإنسان شيء إلا يبلى إلا عظما واحدا، وهو عجْب الذَّنَب، ومنه يُركَّب الخلق يوم القيامة**». **صحيح**: رواه البخاري في صحيحه رقم: 4651، ومسلم في صحيحه رقم: 2955

أي يرسل الله سحابا فتمطر، فإذا أصاب الماء عَجْب الذَّنْب نبت منه الجسم كما ينبت النبات، فيرجع كما كان، ثم ينفخ في الصور نفخة البعث الرادفة، فتعود الأرواح على أثرها إلى الأجساد، ليخرج أصحابها من القبور سراعا إلى أرض المحشر.

الواجب العملي نحو نفخة الصور؟!

إذا كان النبي ﷺ -وهو أخشى الخلق لله وأتقاهم- يقول:

«**كيف أنعم وقد التقم صاحب القرن القرن، وحنى جبهته، وأصغى سمعه ينتظر أن يؤمر أن ينفخ، فينفخ**».

صحيح: رواه أحمد عن ابن عباس كما في السلسلة الصحيحة رقم: 1079

هذا حال رسول الله وأكرم الخلق على الله، فكيف بحال المذنبين المقصِّرين؟!

يقول النبي ﷺ:

كيف يطيب عيشي وقد اقترب موعد النفخ في الصور، وبعده الحساب، وكأن النبي ﷺ خاف على أمته من اقتراب حسابهم مع ضعف استعدادهم، أو لعله أراد حثَّ الصحابة على توصية من يأتي من بعدهم بالتهيؤ ليوم الحساب.

فلما سمع الصحابة هذا التحذير ثقل عليهم، ووجلت قلوبهم، فسألوا رسولهم النصيحة: فكيف نقول يا رسول الله؟

قال:

«**قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل .. توكلنا على الله ربنا**».

فأوصاهم بأن يقولوا: «**حسبنا الله ونعم الوكيل**»، وهي كلمة ملؤها التوكل على الله والاكتفاء به، وغالبا ما يستعملها الناس في الأمور الدنيوية ولمواجهة مشاكلهم الحياتية، لكن استعمالها في الشؤون الأخروية والعبادات اليومية أهم، فالله وحده كافي عباده همومهم الدنيوية والآخروية.

<u>في أي يوم يُنفَخ في الصور النفخة الأولى؟!</u>

قال رسول الله ﷺ:

«**خير يومٍ طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خُلِق آدم، وفيه أُهبِط، وفيه تيب عليه، وفيه قُبِض، وفيه تقوم الساعة، ما على وجه الأرض من دابة إلا وهي تصبح يوم الجمعة مصيخة حتى تطلع الشمس، شفقا من الساعة، إلا ابن آدم**».

صحيح: رواه مالك وابن حبان والحاكم عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: 3334

والإصاخة: الاستماع، لكنه استماعٌ بحَذَر وإشفاق، خشية المفاجأة والمباغتة، فأُلهِمَت البهائم أن الساعة تقوم يوم الجمعة، لذا تخاف كل جمعة، وتعرف كذلك أن قيام الساعة بين الصبح وطلوع الشمس، بينما ابن آدم في غفلة عن كل هذا، ويغط في هذا الوقت من كل جمعة في نوم عميق.

2. الموقف:

وقبل الموقف ينتظرنا هول المطَّلع!

لما طُعِن عمر بن الخطاب ﷺ قال له رجل: إني لأرجو أن لا تمس جلدك النار، فنظر إليه عمر، ثم قال: « إن المغرور لمن غررتموه، والله لو أن لي ما على الأرض لافتديت به من هول المُطَّلَع».

وهول المطَّلع يريد به عمر ما يشرف عليه العبد من أول مشاهد الآخرة، فشبَّهه بالمُطَّلع وهو مكان الاطلاع من موضع عال، لأننا سنطالع لأول مرة المشاهد التي أخبر الله بها في كتابه عن أهوال يوم القيامة، فلا يدري أحدنا، أيبشَّر برضا الله أو سخطه.

الوقاية من هول المطلع!

لما حضر عنبسة بن أبي سفيان الموت اشتد جزعه، وجاء الناس يعودونه، فجعل عنبسة يبكي ويجزع، فقال له القوم: يا أبا عثمان .. ما يبكيك وما يحزنك وقد كنت على سمت من الإسلام حسن وطريقة حسنة؟ فازداد حزنا وشدة بكاء، وقال:

ما يمنعني أن لا أبكي وأن لا يشتد حزني من هول المطلع، وما يدريني ما أشرف عليه غدا، ما قدَّمتُ من كثير عمل تثق به نفسي أنه سينجيني غدا، وإن أوثق شيء في نفسي لكلمات حدثتني بها أختي أم حبيبة بنت أبي سفيان، حدثتني أنها سمعت رسول الله ﷺ وهو قاعد على فراشها يقول:

«**ما من مسلم يحافظ على أربع ركعات قبل صلاة الظهر وأربع بعدها، فتمسُّه النار بعدهن إن شاء الله أبدا**»، فما تركتهن بعد إلى ساعتي هذه، وإنها لأوثق خصال في نفسي.

أرض الموقف:

قال عبد الله بن مسعود ﷺ: سمعت النبي ﷺ يقول:

«**يُحْشَر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كَقُرْصَة النَّقِيِّ، ليس فيها عَلَمٌ لِأحد**». صحيح: رواه مسلم في صحيحه رقم: 2790

ومعنى عفراء أي بيضاء مشوبة بحُمْرة، وقرصة النقيِّ أي كرغيف مصنوع من دقيق خالص من القش والنخالة، والأرض يومئذ ليس فيها أي علامة يُستَدلُّ بها، وليس فيها ما يعوق البصر.

قال القاضي عياض:

«ليس فيها علامة سكنى، ولا بناء، ولا أثَر، ولا شيء من العلامات التي يُهتَدى بها في الطرقات، كالجبل والصخرة البارزة».

قال تعالى:

﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض﴾ [إبراهيم: 48]:

وسواء كان التبديل في ذات الأرض أو في صفاتها؛ فإن الذي يعنينا أن أرض الدنيا قد انقطعت العلاقة معها، وأن الأولين والآخرين من جميع الخلائق سيُجمَعون في صعيد واحد على أرض جديدة عجيبة، ومن عجائب هذه الأرض ما ذكره عبد الله بن مسعود ﷺ:

«تبدَّل الأرض أرضًا، كأنها فضة، لم يُسفَك فيها دم حرام، ولم يُعمَل عليها خطيئة».

وذكروا في حكمة نقاء أرض المحشر وانبساطها: أن يوم القيامة يوم عدل وظهور حق؛ فاقتضت حكمة الله أن يكون المحل الذي يقع فيه الحساب مطهَّرا من المعاصي والمظالم: ﴿لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ﴾، وليكون تجلي الله سبحانه على عباده المؤمنين على أرض جديدة طاهرة تليق بعظمته.

نسائم الرحمة يوم الزحمة!

تأمل قول الله سبحانه يصف يوم الحشر بعد ذكر نسف الجبال وتسوية أرض المحشر:

﴿وخشعت الاصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا﴾

لم يقل: (للجبار)، رغم أن الموقف موقف عظمة وجبروت، بل قال: ﴿للرحمن﴾، فجاء بالرحمة في المقام الذي تنخلع فيه القلوب، ليخفف نيران الخوف بنسائم الرجاء، في موقف يسود فيه الخوف بين أهل المحشر، فلا تسمع إلا همس الحديث ووطء الأقدام.

من أول الخلق حياة بعد النفخة الثانية؟!

قال رسول الله ﷺ:

«**إِنِّي أَوَّل مَنْ يرفع رأسه بعد النَّفْخَة الْآخِرَة**». صحيح: رواه البخاري عن أبي هريرة كما في صحيح البخاري رقم: 4813

وفي صحيح مسلم:

«**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر**».

صحيح: رواه مسلم عن أبي هريرة كما في صحيح مسلم رقم: 2278

ثم يقوم من بعده الخلق أجمعون، ويُحشَر العباد يوم القيامة حفاة عراة غرلا -أي غير مختونين- فحتى هذه الجلدة التي تم نزعها من الرجل والمرأة أثناء الختان ترد إليك لتُبعَث بها، هذه القلفة نزعت منك منذ أربعين أو خمسين أو ستين عاما، وألقيت في القمامة، فذابت وانتهى أمرها منذ عشرات السنين، ثم تبعث وتبعث معك بعد مئات أو آلاف السنين، ألا يدل هذا على أن الله تعالى قادر على الإحياء بعد الموت؟

جاء في الحديث عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت:

«**يا رسول الله، الرجال والنساء ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال:** «**الأمر أشد من أن يُهِمَّهم ذاك**». صحيح: رواه البخاري في صحيحه رقم: 6527

وفي رواية الطبراني عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله، واسوأتاه .. ينظر بعضهم إلى بعض؟ فقال: شُغِل الناس، قلت: ما شُغْلُهم؟ قال: «نشر الصحائف فيها مثاقيل الذر ومثاقيل الخردل».

أول من يُكْسَى من الخلق إبراهيم:

في صحيح البخاري ومسلم:

«**وإن أول الخلائق يُكسَى يوم القيامة إبراهيم**».

صحيح: صحيح البخاري رقم: 4625 ومسلم رقم: 2860

لكن .. ألا يتعارض هذا مع ما جاء في الحديث أن الإنسان يُبعَث في الثياب التي مات فيها:

«**إنَّ المَيِّت يُبْعَث في ثيابه التي يموت فيها**». صحيح: رواه أبوداود وابن حبان عن أبي سعيد الخدري كما في السلسلة الصحيحة رقم: 1671

جمع الإمام ابن حجر بين هذه الأحاديث بأن بعض الناس يحشر عاريا، وبعضهم كاسيا.

أو يحشرون كلهم عراة، ثم يكون أول من يُكسَى الأنبياء، فأول من يكسى إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

أو يخرجون من القبور بالثياب التي ماتوا فيها، ثم تتناثر عنهم عند ابتداء الحشر، فيُحشَرون عراة، ثم يكون أول من يكسى إبراهيم .

حال الناس مع وقفة يوم القيامة

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال:

﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

قال: «**يقوم أحدهم في رشحه إلى أنصاف أذنيه**». صحيح: **رواه** البخاري رقم: 4938 ومسلم رقم: 2862

وفي لفظ آخر:

«**حتَّى يغيب أَحَدُهُم في رَشْحِه إلى أنصاف أذنيه**».

وكثرة العرق يوم القيامة لا يتصورها عقل، ففي صحيح مسلم:

«**إن العَرَق يوم القيامة ليذهب في الأرض سبعين باعا، وإنه ليبلغ إلى أفواه الناس، أو إلى آذانهم**».

صحيح: رواه مسلم عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: 1679

أي ينزل فيها من كثرته شيء كثير جدا، فالسبعون في الحديث للتكثير لا للتحديد.

ويتفاوت الناس في العرق بحسب معاصي كل عبد، فالغارق في المعاصي يُلجِمه العرق إلجاما، وتفصيله خرَّجه مسلم من حديث المقداد، عن النَّبيِّ ﷺ قال:

«**فيكونون في العَرَق كقدر أعمالهم، فمنهم مَنْ يأخذه إلى عَقِبَيه، ومنهم من يأخذه إلى ركبتيه، ومنهم من يأخذه إلى حَقْوَيْهِ، ومنهم من يُلجمه إلجاما**».

صحيح: رواه أحمد والترمذي عن المقداد كما في صحيح الجامع رقم: 777

وورد إشكال هنا:

إن هذا الجمع إذا وقفوا في ماء على أرض معتدلة، فإن الماء يغطيهم على السواء، ولا يتفاوتون، وأجيب عن هذا بأن هذا من خوارق عادات يوم القيامة، والإيمان بها واجب.

وسبب كثرة العرق: دنو الشمس من الرؤوس مع تزاحم الخلق، فتدنو الشمس يوم القيامة من الخلق حتى تكون منهم كمقدار ميل، وسواء كان الميل هو وحدة قياس المسافة المعروفة أو أو الميل الذي تُكْتَحَلُ به العين، فإن المسافة قريبة قريبة، ويستمر هذا الحال خمسين ألف سنة، لا يذوق فيها أهل الموقف طعاما، وما شربوا شراباً حتى تتقطع الأكباد من العطش.

الأجساد تختلف!

اقتراب الشمس في الدنيا مترا واحدا من الأرض كفيل بأن يُحرِق الأرض بمن عليها، لكن اقترابها جدا من الارض يوم القيامة، لا يُحدِث نفس الأثر، فالأجساد غير الأجساد، كما أن الأرض غير الأرض.

ومع هذا .. أبشِروا!

فالمؤمنون في مأمن من كل هذا، ولذا قال سلمان الفارسي ﵁ عن حر الشمس:

«ولا يجد حَرَّها مؤمن ولا مؤمنة».

قال القرطبي وهو يشرح قول سلمان:

«إن هذا لا يضُرُّ مؤمنا كامل الإيمان أو من استظل بالعرش».

ومن استظل بظل العرش سبعة كما ورد في صحيح البخاري:

عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال:

«سبعة يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله:

الإمام العادل.

وشاب نشأ في عبادة ربه.

ورجل قلبه معلَّق في المساجد.

ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرَّقا عليه.

ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله.

ورجل تصدَّق، أخفى حتى لا تعلم شماله ما تُنفِق يمينه.

ورجل ذكر الله خاليا، ففاضت عيناه». صحيح: رواه البخاري عن أبي هريرة كما في صحيح البخاري رقم: 660

وهذا حديث عظيم عظيم، قال فيه الإمام ابن عبد البر:

«هذا أحسن حديث يُروَى في فضائل الأعمال وأعمِّها وأصحِّها إن شاء الله، وحسبك به فضلا، لأن العلم محيط بأن كل من كان في ظل الله يوم القيامة لم ينله هول الموقف».

وقد نظم هذا الحديث في أبيات من الشعر الإمام ابن أبي شامة المقدسي، جاء فيها:

وقال النَبِيُّ المُصطفى إنَّ سبعَةً .. يُظِلُّهم الله العظيم بِظِلِّهِ

مُحِبٌّ، عفيفٌ، ناشئٌ، مُتَصَدِّقٌ .. وباكٍ، مُصَلٍّ، والإمامُ بِعدلِهِ

وأضِف إلى هذه السبعة ثامنا جاء ذكره في حديث:

«من أنظر معسرا أو وضع عنه أظله الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله». صحيح: رواه أحمد ومسلم عن أبي اليسر كما في صحيح الجامع رقم: 6106

لكن ماذا عن طول يوم القيامة؟!

آلاف السنوات تمر على المؤمنين يوم القيامة كأنها ساعات، أليس الله على كل شيء قدير؟!

لقد مات عزير مائة عام ثم بعثه الله، فقيل له: كم لبثت، فقال: لبثت يوما أو بعض يوم.

ونام أصحاب الكهف ما يزيد أكثر من ثلاثمائة عام ثم بعثهم الله، فلما سئلوا: كم لبثتم؟ قالوا: لبثنا يوما أو بعض يوم.

وهذا يجعلك تفهم حديث رسول الله ﷺ:

«**يوم القيامة على المؤمنين كقدر ما بين الظهر والعصر**».

صحيح: رواه الحاكم عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: 8193

تعب اليوم وإلا شقاء الغد!

قال الإمام الغزالي:

«وكل عرَقٍ لم يخرجه التعب في سبيل الله من حج، وجهاد، وصيام، وقيام، وتردد في قضاء حاجة مسلم، وتحمل مشقة في أمر بمعروف ونهي عن منكر، يستخرجه الحياء والخوف في صعيد يوم القيامة».

وهذا مصداق قول الله تعالى عن أهل النار:

﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ (2) عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ [الغاشية: 2-3]:

لم يخشعوا في الدنيا، فخشعوا في الآخرة، ولم يتعبوا في الدنيا، فتعبوا يوم القيامة.

عاد النبي ﷺ مريضا فبشَّره قائلا:

«**أبشِر! فإن الله تعالى يقول: هي ناري أسلِّطها على عبدي المؤمن في الدنيا؛ لتكون حظه من النار يوم القيامة**».

صحيح الجامع رقم: 32 والصحيحة رقم: 557

أي مرضك هو عقوبتك المعجَّلة لما اقترفت من الذنوب، بدلا من أن تؤجَّل العقوبة إلى الآخرة، حيث العذاب الأبقى والأشد، وأضاف النار إليه بقوله: «ناري»، إشارة إلى أن المرض لطف من الله ورحمة.

ظِلُّ الأعمال يوم القيامة

كل الناس يوم القيامة في أمسِّ الحاجة إلى ظِلٍّ، ولذا يحق لك لنا أن نفرح فرحة شديدة بمثل هذا الحديث:

«**كل امرئ في ظل صدقته حتى يُقضَى بين الناس». صحيح: رواه أحمد والحاكم عن عقبة بن عامر كما في** صحيح الجامع رقم: 4510

سمع أبو الخير مرثد بن عبد الله اليزني هذا الحديث عن عقبة بن عامر ﷺ، فكان لا يخطئه يوم إلا تصدَّق فيه بشيء ولو بكعكة أو بصلة، وروى عنه يزيد بن أبي حبيب: وما رأيته داخلا المسجد قط إلا وفى كُمِّه صدقة: إما فلوس، وإما خبز، وإما قمح. قال:

حتى ربما رأيت البصل يحمله، قال: فأقول: يا أبا الخير .. إن هذا يُنتِن ثيابك، قال: فيقول: يا ابن أبي حبيب .. أما إني لم أجد فى البيت شيئا أتصدق به غيره، إنه حدثني رجل من أصحاب رسول الله ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ظل المؤمن يوم القيامة صدقته.

ورغم أن الصدقة عمل انقضى إلا أن الله يجسِّدها يوم القيامة على هيئة ظل محسوس، يستظل بها صاحبها، وقد تمسَّك بهذا الحديث من فضَّل الغني الشاكر على الفقير الصابر، وإذا كان هذا ظِلِّ الصدقة، فماذا ظنك بظِلِّ عرش الرحمن؟!

قال الإمام القرطبي:

«ويحتمل أنه ليس هناك إلا ظل العرش يستظل به المؤمنون أجمع، ولكن لما كانت تلك الظلال لا تنال إلا بالأعمال، وكانت الأعمال تختلف، حصل لكل عامل ظِلٌّ يخصُّه من ظل العرش بحسب عمله».

قصة عجيبة عن الصدقة!

يقول الشيخ ابن عثيمين:

«وحكى لي بعض الصلحاء أن رجلا كان يمنع أهله من الصدقة من البيت يقول: لا تتصدقوا، وفي يوم من الأيام نام ورأى في المنام كأن الساعة قد قامت، ورأى فوق رأسه ظلا يُظِلُّه من الشمس، إلا أن فيه ثلاثة خروق، فجاءت تمرات، فسدَّت هذه الخروق، فتعجب كيف الثوب متخرق وتجيء التمرات تسد الخروق، فلما قصها على زوجته أخبرته أنها تصدقت بثوب وثلاث تمرات! فكان الكساء الأول هو الثوب لكنه مخرَّق، فجاءت التمرات الثلاث فسدت الخروق، ففرح بذلك، وأذن لها بعد هذا أن تتصدق بما شاءت».

3. الحشر

طرائق الحشر الثلاثة

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال:

«**يُحشَر الناس على ثلاث طرائق: راغبين راهبين، واثنان على بعير، وثلاثة على بعير، وأربعة على بعير، وعشرة على بعير، ويحشر بقيتهم إلى النار، تقيل معهم حيث قالوا، وتبيت معهم حيث باتوا، وتصبح معهم حيث أصبحوا، وتمسي معهم حيث أمسوا**». صحيح: صحيح البخاري رقم: 6522

وهذا الحديث يتعلق بصفة الحشر من القبور إلى أرض الحساب، وهذا التقسيم نظير التقسيم الذي في سورة الواقعة: ﴿**وَكُنْتُمْ أَزْواجًا ثَلاثَةً**﴾، فقوله في الحديث:

«**راغبين راهبين**»: يريد به عوام المؤمنين، وهم من خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا، فيترددون بين الخوف والرجاء؛ يخافون عاقبة سيئاتهم، ويرجون رحمة ربهم، وهؤلاء هم أصحاب الميمنة.

«**واثنان على بعير**»: وهم السابقون وأفاضل المؤمنين الذين يُحشَرون –لكرامتهم على الله– ركبانا.

لكن حتى هؤلاء السابقون يتفاوتون، وهذا واضح في اقتسام الثلاثة أو الأربعة أو العشرة للبعير الواحد.

يقول الإمام الغزالي:

«يخلق لهم من أعمالهم بعيرا يركبون عليه، وهذا من ضَعْفِ العمل لكونهم يشتركون فيه، كقوم خرجوا من سفرٍ بعيد، وليس مع أحد منهم ما يشتري مطية توصله، فاشترك في ثمنها اثنان أو ثلاثة ابتاعوا مطية يتعقبون عليها في الطريق، ويبلغ بعير مع عشرة، فاعمل هداك الله عملا يكون لك به بعير خالصٌ من الشركة».

«**وتحشر بقيتهم إلى النار**»: يريد بهؤلاء أصحاب المشأمة.

وإليك بعض صنوف الحشر:

1. **حشر الكافرين!**

عن أنس بن مالك ﷺ: أن رجلا قال: يا نبي الله، كيف يحشر الكافر على وجهه؟ قال: «**أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة**». صحيح البخاري رقم: 6523

قال أبو حامد:

«طبع الآدمي إنكار كل ما لم يأنس به ولم يشاهده، ولو لم يشاهد الإنسان الحية وهي تمشي على بطنها لأنكر المشي من غير رجل، والمشي بالرجل أيضا مستبعد عند من لم يشاهد ذلك، فإياك أن تنكر شيئا من عجائب يوم القيامة لمخالفتها قياس الدنيا، فإنك لو لم تكن شاهدت عجائب الدنيا، ثم عُرِضَت عليك قبل المشاهدة لكنت أشد إنكارا لها».

واسمع ما ذهب إليه ابن حجر في بيان حكمة هذا المشي حين قال:

«والحكمة في حشر الكافر على وجهه: أنه عوقِب على عدم السجود لله في الدنيا، بأن يسحب على وجهه في القيامة؛ إظهارا لهوانه، بحيث صار وجهه مكان يده ورجله في التوقي عن المؤذيات».

2. **حشر المتكبرين:**

روى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده: أن رسول الله ﷺ قال:

«يُحشَر المتكبِّرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال، يغشاهم الذُّلُّ من كل مكان». حسن: رواه أحمد والترمذي عن ابن عمرو كما في صحيح الجامع رقم: 8040

والذرُّ: جمع ذرة، وهي النملة الصغيرة؛ فصورتهم صورة إنسان، وجثتهم كجثة النمل في الصِّغَر، والمراد بهذا الحديث: أن المتكبرين يكونون يوم القيامة على غاية الذل والحقارة.

وهذه الحالة المخزية تناسب ما كانوا عليه في الدنيا من انتفاش كاذب وغرور مزيَّف.

كانوا في الدنيا يظنون أنفسهم فوق الخلق، فحشرهم الله يوم القيامة تحت أقدام الخلق.

وتصوَّروا أنفسهم أعظم المخلوقات؛ فجعلهم الله في دار الجزاء أذلَّ المخلوقات، فكانوا كالذر في الصغر والحقارة، بحيث لا يحس بهم أحد ما لم تشرق عليهم الشمس، كالذر الذي لا يراه الناس إلا من خلال أشعة الشمس.

ويتضاعف ذلهم ويحاصرهم من جميع الجهات جزاء وفاقا لما عاملوا به الناس.

لكن .. ما الكبر في أبسط تعريفاته؟!

قال عون بن عبد الله:

«كفى بك من الكبر أن ترى لك فضلًا على من هو دونك».

ويتضح مفهوم الكِبر بمعرفة ضده، فلما سئل الفضيل بن عياض عن التواضع قال:

«يخضع للحق وينقاد له، ويقبله ممن قاله».

3. **حشر السائلين:**

في الحديث:

«**ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتى يوم القيامة ليس فى وجهه مزعة لحم**». صحيح: رواه أحمد والشيخان عن أبي هريرة ما في صحيح الجامع رقم: 5816

وفهم الإمام البخاري من الحديث أن هذا الرجل هو السائل تكثرا بغير ضرورة، ومن سأل تكثرا فهو غنيٌّ، لا تحل له الصدقة، لذا عوقب في الآخرة.

حين بذل وجهه وعنده كفاية، عوقِب في وجهه بأن جاء بلا لحم فيه، فكان جزاؤه من جنس ذنبه.

أما عن حد الكفاية ففد حدَّده النبي ﷺ في حديث آخر:

«**من سأل وله ما يغنيه جاءت مسألته يوم القيامة خدوشا أو خموشا أو كدوحا في وجهه**».

قيل: يا رسول الله .. وما يغنيه؟ قال:

«**خمسون درهما، أو قيمتها من الذهب**». صحيح: رواه الحاكم والترمذي وابن ماجة عن ابن مسعود كما في صحيح الجامع رقم: 6279

عمر ينفِّذ الوصية النبوية

سمع عمر ﵁ سائلاً وهو يقول: «من يُعَشِّي السائل؟!»، فقال عمر: «عشّوا السائل»، ثم دار إلى دار الإبل فسمع صوته وهو يقول: «من يُعَشِّي السائل؟!»، فقال عمر ﵁: «ألم آمل أن تعشوا السائل»، فقالوا: «قد عشيناه»، فأرسل إليه، فإذا معه جراب مملوء خبزا، فقال: «إنك لست سائلا، أنت تاجر تجمع لأهلك»، ثم أخذ بطرف الجراب، ثم نبذه بين إبل الصدقة.

4. **حشر أصحاب الغلول:**

ومن المشاهد كذلك: مشهد أقوام يأتون حاملين أثقالاً على ظهورهم، كالبعير والشاة وغيرهما، وهؤلاء هم أهل الغلول، أي الذين يسرقون من الغنيمة قبل أن تقسَّم، فإنهم يحشرون في هيئة فاضحة، تفضح خيانتهم أمام الخلق أجمعين. قال رسول الله ﷺ:

«**فوالذي نفس محمد بيده، لا يغُلُّ أحدكم منها شيئا إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه، إن كان بعيرا جاء به له رغاء، وإن كانت بقرة جاء بها لها خوار، وإن كانت شاة جاء بها تيعر، فقد بلَّغْتُ**» .

صحيح: رواه الشيخان وأحمد عن أبي حميد الساعدي كما في صحيح الجامع رقم: 1357

قال تعالى عن هذه الفضيحة المكشوفة على أعين الخلق:

﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ﴾ [الأنعام: 31]

نعم .. سيحمل السارق ما سرق على ظهره أمام الخلق يوم القيامة، مهما كان حقيرا.

رأى عمر بن الخطاب ﵁ رجلاً يسرِق قَدَحا، فقال:

«ألا يَسْتَحيي هذا أن يأتي بإناءٍ يحمله على عُنُقه يوم القيامة».

والمحمول إذا كان مخفيا قيل له: حَمْل بفتح الحاء، كما في حالة الجنين في بطن أمه؛ لأنه لا يُرى، فإذا كان مكشوفا قيل له: حِمْل بكسر الحاء، ومنه قوله تعالى: {وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ} [يوسف:72]؛ لأنه ظاهرٌ.

هدايا العمال غلول!

في الحديث:

«**هدايا العمال غلول**». صحيح: رواه أحمد والبيهقي عن أبي حميد الساعدي كما في صحيح الجامع رقم: 7021

وفي الطبراني عن ابن عباس:

«**الهدية إلى الإمام غلول**». صحيح: رواه الطبراني عن ابن عباس كما في صحيح الجامع رقم: 7054

والحديث يشمل الإمام وكذلك نوابه من الوزراء والمحافظين ومديري الهيئات والمصالح العامة.

رُوِي أن عمر ﷺ أهدى إليه رجل فخذ جزور، ثم أتاه بعد مدة ومعه خصمه، فقال: يا أمير المؤمنين .. اقض لي قضاء فصلا كما يفصل الفخذ من الجزور، فضرب بيده على فخذه وقال:

«الله أكبر .. اكتبوا إلى الآفاق: هدايا العمال غلول»

5. **حشر الغادرين:**

قال النبي ﷺ:

«إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة، يُرفَع لكل غادر لواء، فقيل: هذه غدرة فلان ابن فلان».

صحيح: رواه مسلم عن ابن عمر كما في صحيح الجامع رقم: 483

وهذا الخطاب تفهمه العرب جيدا، لأنهم كانوا يرفعون للوفاء راية بيضاء، وللغدر راية سوداء؛ ليفضحوا الغادر ويعيِّروه، وليحذِّروا الناس منه، فجاء تمييز الغادر في الحديث عن طريق اللواء ليفتضح بهذه العلامة في القيامة، فيذمه أهل الموقف جميعا.

لكن .. أين مكان اللواء؟**!**

قال النبي ﷺ:

«**إن لكل غادر لواء يوم القيامة يُعرَف به عند إسته**».

صحيح: رواه الطيالسي وأحمد عن أنس كما في صحيح الجامع رقم: 2153

عومِل الغادر بنقيض قصده، لأن عادة اللواء أن يكون في الأمام، فجُعِل في الخلف ليزداد فضحه وتوبيخه وتعذيبه، وبدلا من أن يحمل اللواء بيديه، ينغرس اللواء في مؤخرته، بحيث لا يملك صاحبه التخلص منه.

والغرض من الحديث التنفير من الغدر، وبيان أنه من أعظم الجرائم عند الله.

لكن الغدر يتفاوت، ومن ثم فحجم اللواء يتفاوت، بحسب قدر الغدرة.

قال رسول الله ﷺ:

«لكل غادر لواء يوم القيامة يُرفَع له بقدر غدرته، ألا ولا غادر أعظم غدرا من أمير عامة».

صحيح: رواه مسلم عن أبي سعيد كما في صحيح الجامع رقم: 5170

وتغليظ جريمة الغدر من صاحب الولاية العامة؛ لأن ضرر غدره يتعدى إلى خلق كثير، ولأن الأمير غير مضطر إلى الغدر لقدرته على الوفاء.

ومن صور الغدر الشنيعة، ما أخبر به النبي ﷺ:

«إذا اطمأن الرجل إلى الرجل، ثم قتله بعدما اطمأن إليه، نُصِب له يوم القيامة لواء غدر» .

صحيح: رواه الحاكم عن عمرو بن الحمق كما في صحيح الجامع رقم: 357

إن الإسلام دين الوفاء، وقد حارب كل صور الغدر، مع المسلم وغير المسلم، ولذا تبرَّأ النبي ﷺ ممن غدر فقتل، فقال:

«من أمَّن رجلا على دمه فقتله، فأنا بريء من القاتل، وإن كان المقتول كافرا».

صحيح: رواه النسائي عن عمرو بن الحمق كما في صحيح الجامع رقم: 6103

6. **حشر الظالمين**

قال رسول الله ﷺ:

«ما من أمير عشرة إلا وهو يؤتى به يوم القيامة مغلولا، حتى يفكَّه العدل أو يوبقه الجور».

صحيح: رواه البيهقي عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: 5695

الإمارة والمسؤولية هي قيود تكبِّل صاحبها في الآخرة، فكل مسؤول مقيَّد، لكن صاحب العدل مفكوك محرَّر، والظالم أسير مقيَّد، ولذا زاد في رواية أحمد:

«لا يفُكُّه مِنْ ذلك الغُلِّ إلَّا العدل».

ولذا يحق لكل مظلوم أن يهتف اليوم:

بيني وبينك يا ظلومُ الموقِفُ ... والحاكِم العَدْلُ الجواد المُنْصِفُ

وانظروا إلى عمر بن عبد العزيز بعد أن تولى الخلافة، حيث تقول زوجته فاطمة:

دخَلْتُ يوما عليه وهو جالِسٌ فِي مُصلَّاه، واضِعا خَدَّهُ على يده، ودموعه تسيل على خديه، فقلت: مالك؟ فقال:

«ويحك يا فاطمة، قَدْ وُلِّيتُ مِنْ أَمْرِ هَذِهِ الْأُمَّةِ ما وُلِّيتُ، فَتَفَكَّرْتُ في الفقير الجائع، والمريضِ الضَّائع، والعاري المجهود، واليتِيم المكسور، والأرملة الوحيدة والْمظلوم المقهور، والغريب والأسير، والشَّيخ الكبيرِ، وذي العيال الكثير، والمال القليل، وأَشْباههم في أقطار الأرض وأطراف البلاد، فعَلِمْتُ أَنَّ ربِّي سيسألنِي عنهم يوم القيامة، وأنَّ خصمِي دونهم محمد ﷺ، فَخَشيتُ أَنْ لا يَثْبُتَ لي حُجَّةٌ عند خصومته، فرحِمْتُ نفسي، فَبَكَيْتُ».

خوف القيامة سر عدل الفاروق

قال أسلم مولى الفاروق عمر:

«خرجْنا مع عمر بن الخطَّاب إلى حرَّة واقمٍ حتَّى إذا كان بصرارٍ إذا نارٌ، فقال: «يا أسلم، إنِّي لأرى هاهنا ركبًا قصَّر بهم الليل والبرد، انطلق بنا»، فخرجْنا نهرول حتَّى دنونا منهم، فإذا امرأةٌ معها صبيانٌ وقدرٌ منصوبةٌ على النار، وصبيانها يتضاغَوْن، فقال عمر: «السلام عليكم يا أصحاب الضوء»، وكره أن يقول: «يا أصحاب النار»، فقالت: «وعليك السلام»، فدنا، وقال: «ما بال هؤلاء الصبية يتضاغَوْن؟» قالت: «الجوع»، قال: «فأيُّ شيءٍ في هذه القدر؟»

قالت: «ماءٌ أُسكِّتهم به حتى يناموا، واللهُ بيننا وبين عمر».

قال: «إي-رحمكِ الله- وما يدري عمرَ بكم؟»

قالت: «يتولَّى أمْرَنا ثمَّ يغفل عنا؟!»

قال: فأقبل عليَّ فقال: «انطلِقْ بنا»، فخرجْنا نهرول حتَّى أتينا دار الدقيق، فأخرج عدلاً من دقيقٍ، وكبَّة شحمٍ، فقال: «احمِلْه عليَّ»، فقلت: «أنا أحمله عنك»، فقال:

«أنت تحمل وزري يوم القيامة -لا أمَّ لك-؟»

فحملتُه عليه، فانطلق وانطلقت معه إليها نهرول، فألقى ذلك عندها، وأخرج من الدقيق شيئًا، فجعل يقول لها: «ذُرِّي عليَّ وأنا أُحِرُّ لكِ»، (أعمل لك حريرةً)، وجعل ينفخ تحت القدر، ثمَّ أنزلها فقال: «ابغني شيئًا»، فأتته بصحفةٍ فأفرغها فيها، ثمَّ جعل يقول: «أطعِميهم وأنا أسطح لهم»، فلم يزل حتى شبعوا، وترك عندها فَضْل ذلك، وقام وقمت معه فجعلت تقول:

«جزاك الله خيرًا، كنتَ أَوْلى بهذا الأمر من أمير المؤمنين».

ثمَّ تنحَّى عنها ناحية، ثمَّ استقبلها، فربض مربضًا، فقلتُ:

«إنَّ لك شأنًا غير هذا».

فقال: «يا أسلم، إنَّ الجوع أسهرهم وأبكاهم، فأحببتُ ألاَّ أنصرف حتى أرى ما رأيت».

وفي روايةٍ: «..فلمَّا ضحكوا طابت نفسي».

ولله درُّ حافظ إبراهيم حين قال في «عمريَّته»:

ومَنْ رآه أَمام القِدْرِ مُنْبَطِحًا .. والنَّارُ تأخذُ منه وَهْوَ يُذْكِيها

وقد تَخَلَّل في أثناء لحيته .. منها الدُّخانُ وفوهُ غاب في فيها

رأى هناك أمير المؤمنين على .. حالٍ تَروعُ لَعَمْرُ الله رائيها

يَسْتَقْبِلُ النَّار خَوْفَ النَّارِ في غَدِهِ .. والعينُ مِنْ خشيةٍ سالتْ مآقيها

صاحب الزوجتين الظالم!

حتى هذا النوع يفضحه الله يوم الحشر!

قال النبي ﷺ:

«من كانت له امرأتان، فمال إلى إحداهما جاء يوم القيامة وشِقُّه مائل».

صحيح: رواه أحمد وأبوداود والنسائي وابن ماجة عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: 6515

أي جاء يوم القيامة وأحد جنبيه ساقط؛ لأن الجزاء من جنس العمل، فلما لم يعدل بين زوجتيه وحاد عن الحق، كان جزاؤه أن يجيء يوم القيامة ونصفه مائل، بحيث يراه أهل الموقف جميعا، فيكون هذا زيادة في تعذيبه؛ لأن الافتضاح لون من أشدِّ ألوان العذاب.

فإن قال قائل: قد قال الله في سورة النساء:

﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾، فاعلم أن المنفي هنا هو الحب والمودة؛ لأن ذلك مما لا يملكه الرجل ولا هو في قدرته.

قال ابن المنذر: «دلَّت هذه الآية على أن التسوية بينهن في المحبة غير واجبة»، وقد أخبر رسول الله ﷺ أن عائشة أحب إليه من غيرها من أزواجه، فالمراد بالميل في الحديث: عدم العدل بين زوجتيه في ما يملك من الكسوة والنفقة والمبيت لا المحبة، فهذه مما لا يملكها العبد.

وينبغي قياسا على نفس المبدأ: العدل بين الأولاد، والعدل بين أفراد الرعية إن كنت مديرا أو مسؤولا، فهذا كله مما يجب فيه مراعاة العدل وعدم الميل.

7. **حشر مانعي الزكاة:**

مانع الزكاة له عذاب معجل يوم القيامة قبل عذاب النار، وجاءت الأحاديث بأن هذا العذاب سيكون على صورتين:

الصورة الأولى:

قال رسول الله ﷺ:

«**والذي نفسي بيده – أو: والذي لا إله غيره، أو كما حلف – ما من رجل تكون له إبل، أو بقر، أو غنم، لا يؤدي حقها، إلا أُتِي بها يوم القيامة، أعظم ما تكون وأسمنه، تطؤه بأخفافها، وتنطحه بقرونها، كلما جازت أُخراها، رُدَّت عليه أولاها، حتى يُقضَى بين الناس**». صحيح: رواه البخاري عن أبي ذر كما في صحيح البخاري رقم: 1460

هذا عذاب الذي منع زكاة ماله من الإبل والأبقار، وذلك أن يبسط لها مكان واسع مستو تجري فيه، وتأتي أعظم ما تكون وأسمنه، حتى ولو كانت هزيلة في الدنيا، كزيادة في عقوبته، فتكون أثقلَ في وطئها، ويسقط صاحبها تحتها، فتخبط وجهه بأخفافها، وتنطحه بقرونها، وليس مرورها عليه مرة واحدة، بل كلما مرَّت عليه عادت لتمُرَّ عليه مرة ثانية وثالثة وهكذا، فعددها المحدود يصاحبه التكرار غير المحدود؛ ليكون العذاب مستمرا متصاعدا.

الصورة الثانية:

قال رسول الله ﷺ:

«**من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته، مُثِّل له يوم القيامة شجاعا أقرع، له زبيبتان، يطوِّقه يوم القيامة، ثم يأخذ بلِهْزِمتيه (يعني شدقيه أو فكَّيه)، ثم يقول: أنا مالُك .. أنا كنزك**، ثم تلا النبي ﷺ: ﴿**ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة**﴾». صحيح: رواه البخاري عن أبي هريرة كما في صحيح البخاري رقم: 4565

وفي هذا الحديث الثاني لونان من العذاب:

- العذاب البدني:

بأن تفترسه حية من أعظم الحيات من فكَّيه، وهما لحم الخدَّين الذي يتحرك إذا أكل الإنسان، لكن تجري قبل الافتراس مطاردة رهيبة.

جاء في رواية للبخاري عن الشجاع الأقرع: «**يفِرُّ منه صاحبه، فيطلبه**». صحيح البخاري رقم: 6957

وزاد في تفصيل أكبر في صحيح ابن خزيمة:

«فلا يزال يتبعه حتى يُلقِمه يده فيُقَصْقِصُها، ثم يَتْبَعُه سائر جسده».

حسن: رواه ابن خزيمة عن ثوبان كما في صحيح ابن خزيمة رقم: 2255

- العذاب النفسي:

بأن يناديه هذا الثعبان بلسان ناطق يسمعه: «**أنا مالك .. أنا كنزك**».

وفائدة هذا القول: الحسرة وزيادة الإيلام والتعذيب حين لا ينفعه الندم، وفيه نوع من التهكم ليزداد همُّه وغمُّه.

إن الإسلام لا يحارب الغنى، بل يرفع الغني الشاكر درجات عالية في الجنة، ولك أن تحوز المليارات، شريطة أن تؤدي زكاتها، فإذا أديت زكاتها، فقد رفعت عنها اسم الكنز المذموم الذي ذكره الله في قوله:

﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [التوبة: 34]

ومن هنا بشَّرنا النبي ﷺ فقال:

«**ما بلغ أن تؤدي زكاته فزُكِّي، فليس بكنز**». صحيح: رواه أبوداود عن أم سلمة كما في صحيح الجامع رقم: 5582

8. **حشر أهل الصلاة والمتوضئين:**

عن عبد الله بن بسر ﷺ عن رسول الله ﷺ أنه قال:

«**أمتي يوم القيامة غُرٌّ من السجود، محجَّلون من الوضوء**».

صحيح: رواه الترمذي عن عبد الله بن بسر كما في صحيح الجامع رقم: 1397

والغرة بياض في جبهة الفرس، والتحجيل بياض في يديها ورجليها، وسُمِّي النور الذي يكون على مواضع الوضوء يوم القيامة غرة وتحجيلا تشبيها بغرة الفرس.

وقد حرص النبي ﷺ على إشعال روح المنافسة بين الصحابة في إحسان الوضوء، فعن نعيم بن عبد الله، أنه رأى أبا هريرة يتوضأ فغسل وجهه ويديه حتى كاد يبلغ المنكبين، ثم غسل رجليه حتى رفع إلى الساقين، ثم قال سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«**إن أمتي يأتون يوم القيامة غرا محجلين من أثر الوضوء، فمن استطاع منكم أن يطيل غرته فليفعل**». صحيح: رواه مسلم في صحيحه رقم: 246

9. **حشر الشهداء :**

ومن مشاهد يوم القيامة: مشهد أقوام يحشرون ودماؤهم تسيل منهم، وهم الشهداء، وهذا إكرام لهم وبيان لفضلهم، وتشهيرٌ ببذلهم وعلو مقامهم، لأن الجزاء من جنس العمل.

في الحديث:

«**كل كَلْم يكْلَمه المسلم في سبيل الله تعالى يكون يوم القيامة كهيئتها إذا طعنت، تفجَّر دما، واللون لون الدم، والعَرْف عَرْف مسك**».صحيح: رواه الشيخان عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: 4544

مرَّ رسول الله ﷺ يوم أحد بحمزة ﷺ وقد جُدِع أنفه، ومُثِّل بجثمانه، فقال: لو لا أن تجزع صفية لتركته حتى يحشره الله عز وجل من بطون الطير والسباع، وكان هذا دعاء كثير من السلف والصالحين: اللهم احشرني من حواصل الطير وبطون السباع، وسبب ذلك أن يتضاعف أجرهم، ويعلو عند الله قدرهم.

ومثل هذا ما دعا به عبد الله بن جحش يوم أحد، فقال: يا رب .. إذا لقيت العدو غدا، فلقِّني رجلاً شديدا بأسه، شديدا حرده، أقاتله فيك، ويقاتلني، ثم يأخذني، فيجدع أنفي وأذني، فإذا لقيتك غدا، قلتَ: يا عبد الله .. من جدع أنفك وأذنك؟ فأقول: فيك وفي رسولك، فتقول: صدقت.

قال سعد بن أبي وقاص: «فلقد رأيته آخر النهار، وإن أذنه وأنفه لمعلَّقتان في خيط».

صدق الله فصَدَقه!

10. حشر صاحِب القرآن

عن بريدة ﷺ قال : سمعت النبي ﷺ يقول:

«وإِنَّ القرآن يلقى صاحِبَهُ يوم القيامة حين يَنْشَقُّ عنه قَبْرُه كالرَّجُل الشَّاحب، فيقول له: هل تعرفني؟ فيقول: ما أَعْرِفُك، فيقول: أنا صاحبك .. القرآن الَّذي أَظمأْتُك في الهواجر وأسهَرْتُ ليلك، وإنَّ كُلَّ تاجرٍ مِنْ وراء تجارته، وإنَّك اليوم من وراء كل تجارة، فيُعطَى المُلْكَ بِيمينه، والخُلد بِشِمَاله، ويوضَع على رأسه تاج الوقار، ويُكْسَى والِداه حُلَّتَيْن لا يقوم لهما أهل الدنيا، فيقولان: بِمَ كُسِينا هذا؟ فيُقال: بِأَخْذ وَلَدِكما القرآن، ثُمَّ يُقال له: اقرأ واصعد في دار الجنَّة وغُرَفِها، فهو في صعود ما دام يقرأ، هَذًّا كان، أو ترتيلا». السلسلة الصحيحة رقم: 2829

والرجل الشاحب هو الذي تغير لونه، وكأن القرآن يأتي على هذه الهيئة ليكون أشبه بصاحبه في الدنيا، فقد دفعه القرآن لقيام الليل وصيام النهار حتى ظهر أثر ذلك عليه، فلم يكن القرآن ترانيم يتغنى بها صاحبها دون تهذيب سلوك أو تغيير عادات، وهذا دليلٌ على أن القرآن الذي لا تأثير له على عمل العبد وسلوكه لا يكون حجة لصاحبه، وإنما حال صاحب القرآن يجب أن يكون مغايرا لمن حوله، كما قال عبد الله بن مسعود ﷺ:

«ينبغي لقارئ القرآن أن يُعرَف بليله إذا الناس نائمون.

وبنهاره إذا الناس مستيقظون.

وببكائه إذا الناس يضحكون.

وبصمته إذا الناس يخوضون.

وبخضوعه إذا الناس يختالون.

وبحزنه إذا الناس يفرحون».

11. حشر ذي الوجهين:

قال رسول الله ﷺ:

«**من كان له وجهان في الدنيا، كان له يوم القيامة لسانان من نار**». صحيح الجامع رقم: 6496

صورة: من كان له وجهان

يريد به ذلك الشخص الذي يأتي كل قوم بما يرضيهم، سواء كانوا على خير أم شرٍّ، وهذه هي المداهنة المحرمة، وإنما سُمِّي (ذو الوجهين) مداهنًا؛ لأنه يُظهِر لأهل المنكر أنه راضٍ عنهم، فيلقاهم بوجه سمح بالترحيب والبِشْر، وكذلك يُظهِر لأهل الحق أنه عنهم راض، فبخلطته لكلا الفريقين وإظهار رضاه عن فعلهم، استحق اسم المداهنة، تشبيها بالدهان الذى يظهر على ظواهر الأشياء ويستر بواطنها.

قيل لابن عمر: إنا ندخل على أمرائنا، فنقول القول، فإذا خرجنا قلنا غيره. قال: كنا نعده نفاقا على عهد رسول الله ﷺ.

12. **حشر مغتصب الحقوق:**

قال رسول الله ﷺ:

«**لا يأخذ أحد شبرا من الأرض بغير حقه إلا طُوِّقه الله إلى سبع أرضين يوم القيامة**». صحيح الجامع رقم: 7577

وفي معنى طُوِّقه قولان:

- أحدها: معناه أنه يُعاقب بالخسف إلي سبع أرضين، فتكون كل أرض في تلك الحالة طوقا في عنقه كالطوق الذي تلبسه المرأة للزينة.
- والثاني: أنه يُكلَّف بنقل ما أخذ ظلما من الأرض في القيامة، فيحمل سبع أرضين في مقابل هذا الشبر الحقير المغصوب، وذلك كما يحمل السارق ما سرق على عنقه يوم القيامة على سبيل الفضيحة والتعذيب.

وكما ترى، فالجزاء من جنس العمل، وذلك أن هذا الظالم لما تحمل هذا الإثم بالنسبة للأرض، جوزي بأن يتحمل العقوبة بمثلها يوم القيامة.

وفي تقييد الأخذ بالشِّبر مبالغة، وبيانُ أن ما زادَ على الشبر أَوْلى بالعقوبة، ونظيرُه قوله ﷺ في اليمين الكاذبة التي يغصب بها صاحبها حقوق الغير: «**وإن كان قضِيبًا مِنْ أَرَاكٍ**»، كما جاء في الحديث:

«**من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله له النار وحرَّم عليه الجنة، وإن كان قضيبا من أراك**». صحيح: رواه أحمد ومسلم والنسائي عن أبي أمامة الحارثي كما في صحيح الجامع رقم: 6076

فما أقبح الظلم، وما أشد وعيد الظالم، وما أغلظ عقوبته، وكل هذا ردع للأمة عن الظلم، ورحمة بها كي لا تقع في براثنه.

وليس الظالم وحده من تناله العقوبة، بل كل من علاه من مدراء أو وزراء أو رؤساء إذا بلغهم ظلمه ولم يردّوه، أرسى هذه القاعدة عمر بن الخطاب ﷺ حين قال:

«أيما عامل لي ظلم أحدا، وبلغتني مظلمته، ولم أغيِّرها فأنا ظلمته».

4. الشفاعة:

وهي من الخصال الخمسة التي أُعْطيها النبي ﷺ، ولم يُعْطها أحد من الأنبياء قبله، وقد قال عنها النبي ﷺ: **«أتاني آتٍ من عند ربي، فخيَّرني بين أن يدخل نصف أمتي الجنة وبين الشفاعة، فاخترتُ الشفاعة، وهي لمن مات لا يشرك بالله شيئا»**.

صحيح: رواه أحمد عن أبي موسى زالترمذي وابن ماجة عن عوف بن مالك كما في صحيح الجامع رقم: 56

وهذا دليل على أن الشفاعة ستشمل أكثر من نصف الأمة، وفي سنن ابن ماجة بسند فيه ضعف:

«خُيِّرت بين الشفاعة وبين أن يدخل نصف أمتي الجنة، فاخترتُ الشفاعة؛ لأنها أعم وأكفى، ترونها للمتقين، لا ولكنها للمذنبين الخطائين المتلوثين». ضعيف: رواه أحمد عن ابن عمر كما في صحيح الجامع رقم: 2932

ومن كرم النبي ﷺ أن جعل شفاعته للمذنبين، لكونهم أحوج إليها من الطائعين، كأنَّه هيَّأ فرص النجاة للمقصِّرين ليلحقوا بالمجتهدين.

والشفاعة بين الناس هي التوسط في جلب نفع لهم، أو دفْع ضرٍّ عنهم، في غير معصية، وتَشمل: التحريض على الصَّدقات، وتفريج الكربات، وقضاء الحاجات، والتوسُّط في الإقالة من بيع لمضطرٍّ، وإنظار معسر إلى ميسرة، والتوسُّط في تخفيف الدَّين عن المدين، أو إبرائه منه، أو أدائه عنه.

لكن الشفاعة في حق النبي ﷺ شيء آخر غير كل هذا، ولا تكون إلا يوم القيامة، وهو سبعة أنواع:

أولها: الشفاعة العظمى

وهي المقام المحمود الذي وعده الله إياه في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: 79].

وهذه شفاعة عامة لأهل الموقف ليعجِّل الله حسابهم ويستريحوا من طول الموقف يوم القيامة وشدة كربه، وهذه الشفاعة خاصة بالنبي ﷺ وحده دون باقي الخلق حتى الأنبياء، فيشفع النبي ﷺ للخلائق كلهم، لأمته وغيرها من الأمم، بعد أن جاءوا إلى كبراء الرسل- عليهم الصلاة والسلام- يسألونهم أن يشفعوا لهم إلى ربهم، لفصل القضاء، فيتدافع الشفاعة أولئك المرسلون، ويتنصلون منها ويعتذرون، حتى ينتهوا إلى رسول الله ﷺ، فيتقدم فيشفع، ويسأل فيُعطَى، فيحمده كل الخلق لما يرون من فضله عند ربه، ولما وصل إليهم من الخير، وهذا هو المقام المحمود.

وهو ما ندعو به كل يوم خمس مرات! عقب كل أذان! وما أكثر من يضيع سنن الأذان! ومنها هذا الدعاء الثمين الذي علَّمنا إياه سيد المرسلين.

في صحيح البخاري عن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

«**من قال حين يسمع النداء: اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة، آت محمدا الوسيلة والفضيلة، وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته، إلا حلَّت له الشفاعة يوم القيامة**». صحيح البخاري رقم: 614

لكن ما الوسيلة؟!

الوسيلة هي المرتبة الزائدة على سائر الخلق، كما في الحديث:

«**سلوا الله لي الوسيلة أعلى درجة في الجنة لا ينالها إلا رجل واحد، وأرجو أن أكون أنا هو**». صحيح: رواه الترمذي عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: 3636

وسؤال الوسيلة للنبي ﷺ من أسباب الفوز بشفاعته، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ أنه سمع النبي ﷺ يقول:

«**إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا علي، فإنه من صلى عليَّ صلاة صلى الله عليه عشرا، ثم سلوا لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله، وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلَّتْ عليه الشفاعة**».

صحيح: رواه مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص كما في صحيح مسلم رقم: 384

خفة حساب المؤمنين

ومما يخفف موقف يوم القيامة على المؤمنين أن الله يناديهم بنفسه:

﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف: 68]

ذكر المحاسبي في الرعاية:

«ينادي المنادي يوم القيامة:

﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾، فيرفع الخلائق رؤوسهم، يقولون: نحن عباد الله، ثم ينادي الثانية:

﴿الذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين﴾، فينكِّس الكفار رؤوسهم، ويبقى الموحِّدون رافعي رؤوسهم.

ثم ينادي الثالثة:

﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ [يونس: 63]، فينكِّس أهل الكبائر رؤوسهم، ويبقى أهل التقوى رافعي رؤوسهم، قد أزال عنهم الخوف والحزن كما وعدهم».

ولاحظ أنه لم يقل: يا عبادي (الذين آمنوا) لا خوف عليكم، ليكون ذلك أنكى لقلوب غير المؤمنين، وأشد حسرة عليهم، حيث يطمعون أولا في الدخول تحت مظلة هذه البشارة: ﴿يَا عِبَادِ﴾، قبل أن ينزل عليهم نبأ الحرمان كالصاعقة، وعندها ينزل بهم اليأس الشديد.

فإن سألتَ:

لم نفى الخوف بالاسم: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْكُم﴾ ، بينما نفى الحزن بالفعل: ﴿تَحْزَنُونَ﴾؟!

فالجواب:

لأن سبب الخوف مستقبلي، والمستقبل ليس فيه تجدد، بينما سبب الحزن ماض متجدِّد، كلما تذكره الإنسان تجددت أحزانه، فناسب أن يستعمل مع التجدد الفعل المضارع، وما أبرد وقع هذه البشارة الربانية على قلوب المؤمنين، فلا خوف ولا حزن يمسهم ابتداءً من اليوم وإلى الأبد.

لماذا كانت الشفاعة هي المقام المحمود رغم كثرة محامد الرسول؟!

والجواب:

من المعلوم أن حمد الإنسان لغيره على سعيه في تخليصه من العقاب أعظم من حمده له على سعيه في زيادة ثوابه؛ لأن احتياج الإنسان لدفع الآلام والشدائد أعظم من احتياجه لتحصيل المنافع والفوائد، وأعظم الآلام: آلام الآخرة، وأشد الأهوال: أهوال يوم القيامة، ولذا فهم جمهور المفسرين أن المقام المحمود هو الشفاعة، وهي المراد بقوله عليه السلام:

«**لكل نبي دعوة مستجابة يدعو بها، وأريد أن أختبئ دعوتي شفاعة لأمتي في الآخرة**». صحيح البخاري رقم: 6304

وهذا من حسن رأيه ونظره ﷺ ومن رحمته بأمته حيث اختار أن تكون دعوته في ما يبقى، والآخرة خير وأبقى.

<u>لكن هل لا يستجاب للأنبياء إلا دعوة واحدة؟!</u>

قال ابن حجر:

«اعلم أن جميع دعوات الأنبياء مستجابة، والمراد بهذا الحديث أن كل نبي دعا على أمته بالإهلاك إلا أنا، فلم أدْعُ، فأُعطيتُ الشفاعة عوضا عن ذلك للصبر على أذاهم».

ثانيها : الشفاعة لأهل الجنة لدخول الجنة

عن أنس بن مالك ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ: «**آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أُمِرتُ لا أفتح لأحد قبلك**». صحيح: رواه مسلم رقم: 333

وفي رواية له: «**أنا أول شفيع في الجنة** ». **صحيح**: رواه مسلم رقم: 332

ويكون أول من يدخل الجنة فقراء المهاجرين، كما جاء في الحديث:

«**أول زمرة تدخل الجنة من أمتي: فقراء المهاجرين، يأتون يوم القيامة إلى باب الجنة، ويستفتحون، فيقول لهم الخزنة: أو قد حوسبتم؟ قالوا: بأي شيء نحاسب؟ وإنما كانت أسيافنا على عواتقنا في سبيل الله حتى متنا على ذلك؟ فيُفتَح لهم، فيقيلون فيها أربعين عاما قبل أن يدخلها الناس**».

صحيح: رواه الحاكم والبيهقي عن ابن عمرو كما في صحيح الجامع رقم: 96

هذه الزمرة من الفقراء التي لا يأبه الناس لها ولا يعرفون أسماءها، ولم تنل مكانتها في الدنيا لقلة مالها ورِقَّة حالها، هي السابقة يوم القيامة، وفي مقدِّمة صفوف الجنة، وهذا إن دلَّ على شيء، فإنما يدل على أن موازين الآخرة مختلفة، وأننا يجب ألا تخدعنا المظاهر عن الجواهر، فرُبَّ مغمور بين الناس يسبقهم يوم القيامة، ورُبَّ مشهور بين الناس يتقدم بعلمه ودينه، لكن يتأخر الصفوف يوم القيامة.

ثالثها : شفاعة الرسول ﷺ لعمِّه أبي طالب

فعن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ ذُكِر عنده عمه أبو طالب فقال:

«**لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيُجعَل في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه، يغلي منه أمُّ دماغه**». صحيح الجامع رقم: 5087

وعن العباس بن عبد المطلب ﷺ أنه قال للنبى ﷺ: ما أغنيت عن عمك، فإنه كان يحوطك ويغضب لك، فقال ﷺ:

«**هو في ضَحْضاحٍ مِنْ نارٍ، ولولا أنا لكان في الدَّرك الأسفل من النَّار**». **صحيح**: صحيح مسلم رقم: 209

والضحضاح: ما رقَّ من الماء على وجه الأرض إلى نحو الكعبين، فاستعير هذا اللفظ لتخفيف عذاب النار.

وهذه الشفاعة ليس معناها أن الكافر ينفعه عمله، لكنها تكريم خاص بالنبي ﷺ، لا يناله غيره، فلا أحد يشفع في كافر أبدًا إلا رسول الله ﷺ، ومع هذا لم تقبل الشفاعة كاملة ، وإنما كان أثرها تخفيف العذاب فحسب.

رابعها : شفاعته ﷺ في دخول أناس من أمته الجنة بغير حساب

لقول النبي ﷺ:

«سألت الله الشفاعة لأمتي، فقال: لك سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب. قلت: رب زدني، فحثا لي بيديه مرتين، وعن يمينه وعن شماله».

صحيح: رواه هناد عن أبي هريرة كما في الجامع رقم: 3590

وفي حديث أبي أمامة ﷺ:

«**وعدني ربي أن يُدخِل الجنة من أمتي سبعين ألفا، بلا حساب عليهم ولا عذاب، مع كل ألف سبعون ألفا، وثلاث حثيات من حثيات ربي**». صحيح: رواه أحمد والترمذي وابن حبان عن أبي أمامة كما في صحيح الجامع رقم: 7111

ضرَب المثَل هنا بالحثيات؛ لأن شأن المُعْطي إذا طُلِب منه الزيادة، أن يحثو بيديه بغير حِساب، وهو دليل على المبالغة في الكثرة.

هذا يعني أن عدد من يدخل الجنة بغير حساب هائل، وأن مجموع هؤلاء:

سبعون ألفا + أربعة ملايين وتسعمائة ألف + ثلاث حثيات عظيمة لا يعلم عدد من فيها إلا الله

خامسها: شفاعته ﷺ لأناس دخلوا النار في أن يخرجوا منها

لقول النبي ﷺ :

«**يخرج من النار قوم بالشفاعة كأنهم الثعارير**». صحيح: رواه الشيخان عن جابر كما في صحيح الجامع رقم: 8059

والثعارير هي صغَار القثَّاء (الثوم) أي النبات الصغير، وهذا التشبيه لهم بعد أن ينبتوا بماء الحياة بعد خروجهم من النار، وأما في أول خروجهم من النار، فإنهم يكونون كالفحم.

وتنصرف كلمة الشفاعة إذا أُطلِقت إلى هذا النوع، أي من يشفع لهم النبي ﷺ في الخروج من النار، ولذا لما سَمِع عليٌّ ﷺ امرأة تدعو: «اللهم أدخلني في شفاعة محمد»، قال لها: «إِذن تَمَسَّكِ النار».

ومن أدلة هذا النوع من الشفاعة قول النبي ﷺ كما في سنن الترمذي عن عمران بن حصين:

«**ليخرجن قوم من أمتي من النار بشفاعتي، يسمون الجهنميين**». صحيح: رواه الترمذي وابن ماجة عن عمران بن حصين كما في صحيح الجامع رقم: 9493

وذلك نسبة إلى جهنم، وهذا الاسم مختص بمن شفع لهم النبي ﷺ بالخروج من النار، لكن كأن في إطلاق هذا الاسم نوع انتقاص، لذا جاء في صحيح مسلم:

«**فيدعون الله، فيذهب عنهم هذا الاسم**». صحيح: صحيح مسلم رقم: 9493

ولذهاب هذا الاسم عنهم قصة، وللقصة تفصيل، والتفصيل جاء في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ حين سئل: أسمعت رسول الله ﷺ يقول في هذه الآية: {ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين} [الحجر: 2]؟!

فقال: نعم، سمعته يقول:

«**يخرج الله أناسا من المؤمنين من النار بعدما يأخذ نقمته منهم. قال: لما أدخلهم الله النار مع المشركين، قال المشركون: أليس كنتم تزعمون في الدنيا أنكم أولياء، فما لكم معنا في النار؟ فإذا سمع الله ذلك منهم أذن في الشفاعة، فيتشفع لهم الملائكة والنبيون حتى يخرجوا بإذن الله، فلما أُخرِجوا قالوا: يا ليتنا كنا مثلهم، فتدركنا الشفاعة، فنخرج من النار، فذلك قول الله جل وعلا: {ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين} [الحجر: 2] قال: فيسمون في الجنة الجهنميين من أجل سواد في وجوههم، فيقولون: ربنا .. أذهب عنا هذا الاسم. قال: فيأمرهم فيغتسلون في نهر في الجنة، فيذهب ذلك منهم**». **صحيح**: صحيح ابن حبان رقم: 7389

بشرى لأصحاب الكبائر!

جاء في حديث جابر:

«**شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**». صحيح: رواه أحمد وأبوداود والنسائي وابن حبان عن جابر كما في صحيح الجامع رقم: 3714

لذا كان جابر ﷺ يقول:

«من لم يكن من أهل الكبائر، فما له وللشفاعة».

وكان في هذا تربية نبوية في غاية الأهمية لأصحاب النبي ﷺ، فقد أمسك بعض الصحابة عن الاستغفار لأصحاب الكبائر، فأراد النبي ﷺ أن يعلِّمهم أن رحمة الله لا تضيق عن أحد من خلقه، ولعل هذا الإمساك عن الاستغفار يؤدي بهم إلى العُجْب والاستكبار، واسمع ما رواه عبد الله بن عمر ﷺ:

«ما زلنا نمسك عن الاستغفار لأهل الكبائر ، حتى سمعنا من نبينا ﷺ: (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء)، وإني ادخرت دعوتي شفاعة لأهل الكبائر من أمتي يوم القيامة».

وعن ابن عمر ﷺ في رواية أخرى:

«فأمسكنا عن كثير مما كان في أنفسنا».

وتبقى شفاعة الله!

في صحيح البخاري عن المؤمنين الذي اجتازوا الصراط، يسألون عن إخوانهم الذين سقطوا في جهنم:

«**يقولون: ربنا إخواننا، كانوا يصلون معنا، ويصومون معنا، ويعملون معنا، فيقول الله تعالى: اذهبوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من إيمان فأخرِجوه، ويحرِّم الله صورهم على النار، فيأتونهم وبعضهم قد غاب في النار إلى قدمه، وإلى أنصاف ساقيه، فيخرجون من عرفوا، ثم يعودون، فيقول: اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار فأخرجوه، فيُخرِجون من عرفوا، ثم يعودون، فيقول: اذهبوا، فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه، فيخرجون من عرفوا**». صحيح: رواه البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رقم: 7439

قال أبو سعيد: فإن لم تصدقوني فاقرءوا: {إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها} [النساء: 40].

ألا ما أروع هذا الحديث..

إن حثَّنا هذا الحديث على شيء، فهو يحثنا على أن نختار صحبتنا اليوم، وأن ندقِّق في اختيار من حولنا، حتى إذا فاتتنا النجاة غدا (لا قدَّر الله)، وجدنا من أهل الجنة من يذكرنا، ولا يلهيه نعيم الجنة العظيم عن ذكر أصحابه من أصحاب الجحيم.

يدخل أهل الجنة الجنة، فيتفقَّدون أصحابهم، فلا يجدونهم معهم، ثم يعلمون أنهم ليسوا من أهل النجاة، فيطلبون من الله أن ينقذ أحبابهم من النار، ويلحقهم بهم في دار الأبرار، فيجيبهم الله إلى ما يريدون.

والمرعب في هذا الحديث أن من سقط في النار كانوا قوما يصلون و يصومون ومع الصالحين يعملون، ومع هذا كان مصيرهم إلى النار، فكيف بمن لا يصلي ولا يصوم؟! وهذا والله من أهم دوافع الخوف وأسباب الوجل، مع عدم الاغترار بالعمل.

أما كون المؤمنين يذهبون إلى النار، وكيف يستطيعون الوصول إليها؟

والتعرف على من كان في قلبه مثقال دينار، أو نصف دينار، أو مثقال ذرة من إيمان؟

فهذه كلها من أمور الآخرة، ولا تقاس بما تعارف عليه الناس اليوم في دنياهم، وليس بمستبعد على قدرة الله أن يجعل النار غير مؤذية للمؤمنين الباحثين عن إخوانهم في النار، كالملائكة الذين يعذِّبون أهل النار.

كلما كثر عدد من عرفت من الصالحين أو أحببت من الشهداء، زادت فرص أن يشفعوا لك، ويكونوا سبب نجاتك، فاستكثِر منهم اليوم ما استطعتَ، واستبشِر!

وتبقى شفاعة الله، وهي فرصة الرحمة الأخيرة!

قال رسول الله ﷺ:

«فيشفع النبيون والملائكة والمؤمنون، فيقول الجبار: بقيت شفاعتي، فيقبض قبضة من النار، فيُخرِج أقواما قد امتُحِشوا، فيلقون في نهر بأفواه الجنة، يقال له: ماء الحياة، فينبتون في حافتيه كما تنبت الحبة في حميل السيل».

صحيح البخاري رقم: 7439

سادسها: شفاعته ﷺ لقوم استحقوا النار أن لا يدخلوها

فينجون من النار ببركة الشفاعة، ولا يمسهم العذاب مع استحقاقهم له.

قال الحافظ ابن حجر:

«ويشفع في بعض المؤمنين بالخروج من النار بعد أن دخلوها، وفي بعضهم بعدم دخولها، بعد أن استوجبوا دخولها».

وساق الشيخ ابن عثيمين ما استدلَّ به على هذه الشفاعة، فقال رحمه الله:

«وهذه قد يستدل لها بقول الرسول ﷺ: (**ما من مسلم يموت، فيقوم على جنازته أربعون رجلا، لا يشركون بالله شيئًا، إلا شفَّعهم فيه**)، فإن هذه شفاعة قبل أن يدخل النار، فيشفِّعهم الله في ذلك».

سابعا: شفاعته ﷺ لرفع درجات أقوام من أهل الجنة

والجنة مائة درجة، فيرفع الله من أهل الجنة إلى درجة من درجات الجنة لا يستحقها بعمله.

قال الإمام ابن القيم في هذا النوع من الشفاعة:

«شفاعته لقومٍ مِنْ المؤمنين في زيادة الثواب، ورفعة الدَّرجات ، وهذا قد يُستدلَّ عليه بدعاء النبي ﷺ لأبي سلمة، وقوله ﷺ: (**اللهم اغفر لأبي سلمة، وارْفَع درجته في المهْديين**)، وقوله ﷺ في حديث أبي موسى: (**اللهم اغفر لعُبَيْد أبي عامر، واجعله يوم القيامة فوق كثيرٍ مِنْ خلقك**)».

شفاعة النبي في ثلاثة!

1. **المخلِصون:**

عن أبي هريرة ﵁ أنه قال:

قيل: يا رسول الله .. من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟!

قال رسول الله ﷺ: «لقد ظَنَنْتُ يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أَحَدٌ أول مِنْك، لما رأيتُ مِنْ حرصك على الحديث، أسعد النَّاس بشفاعتي يوم القيامة: مَنْ قال لا إله إلا الله خالِصًا مِنْ قلبه أو نفسه».

صحيح: صحيح البخاري رقم: 99

وفي مسند أحمد عن أبي هريرة ﵁: قال رسول الله ﷺ:

«**وشفاعتي لمن شهد أن لا إله إلا الله مخلصا، يُصَدِّقُ قلبُه لسانَه، ولسانه قلبَه**». **صحيح**: مسند أحمد رقم: 7725

واستدل شيخ الإسلام ابن تيمية بهذه الأحاديث على فضل الإخلاص، فقال:

«وكلما كان الرجل أعظم إخلاصًا ، كانت شفاعة الرسول ﷺ أقرب إليه».

2. **المصلون عليه:**

قال رسول الله ﷺ:

«**من صلى عليَّ حين يصبح عشرا، وحين يمسي عشرا، أدركته شفاعتي يوم القيامة**».

حسن: رواه الطبراني عن أبي الدرداء كما في صحيح الجامع رقم: 6357

وفي سنن الترمذي:

«**إن أَوْلى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليَّ صلاة**». **ضعيف**: ضعيف الجامع رقم: 1821

والمراد بـقوله: «**أَوْلى الناس بي**» أي: شفاعتي.

وله شاهد عند البيهقي عن أبي أمامة بلفظ:

«**صلاة أمتي تعرض عليَّ في كل يوم جمعة، فمن كان أكثرهم عليَّ صلاة، كان أقربهم مني منزلة**». **ضعيف: رواه البيهقي عن أبي أمامة كما في ضعيف الجامع رقم: 1115**

لأن كثرة الصلاة على النبي ﷺ دليل محبته، فمن أحب شيئا أكثر من ذكره، ومن أحب رسول الله ﷺ أكثر من الصلاة عليه، فكلما زادت الصلاة عليه كان هذا دليلا على شدة محبته، وبالحب تتقارب المنازل يوم القيامة، وبالحب يحشرنا الله في زمرة حبيبه ﷺ.

3. من حافظ على الدعاء المأثور بعد الأذان كما تقدم.

ولا يشفع في ثلاثة!

قال رسول الله ﷺ:

«صنفان من أمتي لن تنالهما شفاعتي: إمام ظلوم غشوم، وكلُّ غالٍ مارق». حسن: رواه الطبراني عن أبي أمامة كما في صحيح الجامع رقم: 3798

وهما صنفان -كما ترى- لهما أعظم الضرر على المسلمين، إما بالظلم، وإما بالغلو، فكانت عقوبتهما الحرمان من شفاعة النبي ﷺ.

ومن العجيب أن ديننا حذرنا من الظلم تحذيرا شديدا وبصور متنوعة، لكن أمتنا هي أكثر الأمم في استشراء الظلم وشيوعه. قال رسول الله ﷺ لأبي هريرة رضي الله عنه:

«إِنْ طالتْ بِكَ مُدَّةٌ أَوْشَكْتَ أن ترى قوما يغْدون في سَخَط الله، ويروحون في لعنته، في أيديهم مثل أذناب البقر». صحيح: صحيح مسلم رقم: 5100

وفي حديث أبي أمامة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ:

«سيكون في آخر الزمان شرطة يغدون في غضب الله، و يروحون في سخط الله». صحيح: رواه الطبراني عن أبي أمامة كما في صحيح الجامع رقم: 3666

وأما الصنف الثالث المحروم من الشفاعة، فقد تحدث عنه أنس بن مالك ﷺ، فقال:

«من كذَّب بالشفاعة فلا نصيب له فيها».

فالجزاء من جنس العمل ، فمن كذَّب بالشفاعة وادَّعى بطلانها، كان أَوْلى الناس بالحرمان منها غدا، جزاءًا وفاقًا.

5. العرض والحساب:

قال رسول الله ﷺ:

«ما منكم من أحد إلا سيكلِّمه الله يوم القيامة، ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه، فلا يرى إلا ما قدَّم، وينظر أشأم منه، فلا يرى إلا ما قدَّم، وينظر بين يديه، فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة، ولو بكلمة طيبة». صحيح: رواه الشيخان وأحمد والترمذي عن عدي بن حاتم كما في صحيح الجامع رقم: 5798

جميع الخلق سيكلمهم الله غدا مباشرة بلا ترجمان ولا واسطة، فيسألهم عن جميع أعمالهم، خيرها وشرها، دقيقها وجليلها، ما علمه العباد وما نسوه، وكما خلق الله الناس ورزقهم في ساعة واحدة، سيحاسبهم كذلك في ساعة واحدة.

وليس مع العبد ساعة الحساب أنصار ولا أعوان إلا عمله الصالح، ولذا حثَّ النبي ﷺ على اتقاء النار به ولو بأقل القليل، كنصف التمرة، حتى إن لم يجدها العبد، فبكلمة واحدة .. طيبة.

وإن التفكر اليوم في موقف العرض غدا وساعة الحساب، هو خير ما يقوِّم سلوك العبد ويعين على الاستقامة، ولذا قال الإمام ابن دقيق العيد:

«ما تكلَّمتُ بكلمة؛ ولا فعلت فعلاً؛ إلا وأعددت له جوابًا بين يدي الله عز وجل».

ولذا كان وعاظ الخلفاء يذكِّرونهم دائما بهذا الموقف الرهيب، لتلين قلوب الأمراء مع أفراد الرعية، ويردعهم خوف المساءلة بين يدي الله عن كبيرة الظلم وعدم القسمة بالسوية، فهذا ابن السماك

واعظ الرشيد، يقول له يحيى بن خالد البرمكي: إذا دخلت على هارون أمير المؤمنين فأوجِز، ولا تكثر عليه، فلما دخل عليه وقام بين يديه، إذا به يذكِّره بعرضه على الله قائلا:

يا أمير المؤمنين .. إن لك بين يدي الله تعالى مقاما، وإن لك من مقامك منصرفا، فانظر إلى أين منصرفك، إلى الجنة أم إلى النار؟ قال: فبكى هارون حتى كاد أن يموت.

وعمر بن عبد العزيز يبكي ليلة، فيبكي لبكائه أهل الدار، فتقول له زوجته فاطمة: بأبي أنت يا أمير المؤمنين .. مم بكيت؟

قال: ذكرت منصرف القوم من بين يدي الله تعالى: فريق في الجنة، وفريق في السعير. ثم صرخ وغُشِي عليه.

ولذا كان بعض السلف يرى في العرض على الله والوقوف بين يديه أهم أسباب عدم الاستغراق في نعيم الدنيا، فقال:

«شيئان قطعا عني لذاذة الدنيا: ذكر الموت، والوقوف بين يدي الله عز وجل».

كيف يلذُّ العيش من كان موقنا ... بأن المنايا بغتة ستعاجله

وكيف يلِذُّ العيش من كان موقنا ... بأن إله الخلق لا بد سائله

<u>أول القضايا المعروضة غدا!</u>

قال رسول الله ﷺ:

«أوَّل ما يُقْضَى بين الناس يوم القيامة في الدِّماء». صحيح: رواه الشيخان وأحمد والنسائي عن ابن مسعود كما في صحيح الجامع رقم: 2577

وهذا الحديث من أعظم أحاديث تعظيم أمر الدماء في الإسلام، فإن ابتداء الحساب يكون بالأهم، وليس فيه مخالفة للحديث المشهور: «**أول ما يحاسب الناس به يوم القيامة من أعمالهم الصلاة**»؛ لأن حديث الصلاة في ما بين العبد وربه، والحديث الأول فهو بين العباد.

أو أن حديث الدماء مثال لمن فعل السيئات، وحديث الصلاة مثال لترك العبادات.

وفي سنن النسائي ما جمع بين الحسابين:

«**أول ما يُحاسَب به العبد الصلاة، وأول ما يقضى بين الناس في الدماء**». صحيح: رواه النسائي عن ابن مسعود كما في صحيح الجامع رقم: 2572

وأما صفة الفصل في الدماء، فيشرحها النبي ﷺ في مشهد دقيق يحيط بكل التفاصيل، ويبين لنا ما سيجري يوم القيامة بين كل قاتل ومقتول، فيقول ﷺ:

«**يأتي المقتول متعلقا رأسه بإحدى يديه، متلبِّبا قاتله بيده الأخرى، تشخب أوداجه دما، حتى يأتي به العرش، فيقول المقتول لرب العالمين: هذا قتلني، فيقول الله للقاتل: تعست، ويذهب به إلى النار**».

صحيح: رواه الطبراني في المعجم الكبير والأوسط عن ابن عباس كما في السلسلة الصحيحة رقم: 2697

إن قضايا القتل –لشدة أهميتها– لا يفصل فيها غدا إلأ الله رب العالمين، فلا يوكِل حساب الدماء إلى أحد من الملائكة، وإنما يستدعي كل قاتل ومقتول للوقوف بين يديه، فيُعرَضون عليه ليفصل بينهم، وأما كيف يتسع يوم القيامة للفصل بين كل قتيل وقاتل من لدن آدم إلى أن تقوم الساعة، فالزمان غير الزمان، والأرض غير الأرض، وأحكام ذلك اليوم لا يحيط بها العقل البشري، لذا ينبغي التسليم للخبر الصحيح المروي.

وأما عن أول أمة تحاسب، فهي أمة النبي ﷺ لقول رسول الله ﷺ:

«**نحن الآخِرون من أهل الدنيا، والأوَّلون المقضي لهم قبل الخلائق**». صحيح الجامع رقم: 1017

أقسام المسلمين في الحساب!

المسلمون على أقسام يوم القيامة:

القسم الأول:

من يدخل الجنة بغير حساب، كما في حديث السبعين ألفا الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، وهؤلاء هم صفوة الأمة، والقمم الشامخة في الإيمان والتقوى والصلاح والجهاد، ووعد الله أن يدخل مع كل ألف سبعين ألفا ممن يدخل في ركابهم، أي مع كل واحد من السبعين ألفا يدخل سبعين رجلا.

القسم الثاني:

من يحاسب حسابًا يسيرًا، وهو العرض فقط، فلا يحاسَب حساب مناقشة، وهذا من أهل السعادة والسرور. قال تعالى: {فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا} [الانشقاق: 7 – 9].

في صحيح البخاري ومسلم عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال:

«**ليس أحد يُحاسَب يوم القيامة إلا هلك**»، فقلت: يا رسول الله .. أليس قد قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ- فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق : 7 – 8]، فقال رسول الله ﷺ:

«**إنما ذلك العرض ، وليس أحد يناقش الحساب يوم القيامة إلا هلك**».

ولم يكن النبي ﷺ يضجر إذا راجعه أحد، وإنما أجاب عائشة حين قابلت السُّنَّة بآيات القرآن.

قال القرطبي في معنى هذا العرض:

«إن الحساب المذكور في الآية إنما هو أن تُعرَض أعمال المؤمن عليه، حتى يعرف مِنَّة الله عليه في سترها عليه في الدنيا، وفي عفوه عنها في الآخرة».

القسم الثالث: من يحاسب حساب مناقشة

وهذا متعرِّضٌ للخطر لقوله ﷺ: «من نوقش الحساب عُذِّب».

ومعنى نوقش الحساب، أي حوسب حساب استقصاء، فإنه يعذب، والاستقصاءُ في الحساب هو لا يُترَك منه شيء، يقال: انتقشت منه جميعَ حقي، ومنه: نقْش الشوكة من الرِّجْل، وهو استخراجها منها؛ والمعني: من دُقِّق في حسابه، فقد هلك.

قال النووي في شرحه للحديث:

«قال القاضي:

وقوله: «**عُذِّب**» له معنيان:

أحدهما : أن نفس المناقشة وعرض الذنوب والتوقيف عليها هو التعذيب لما فيه من التوبيخ.

والثاني : أنه مفض إلى العذاب بالنار، ويؤيده قوله في الرواية الأخرى: (هلك) مكان (عذب) هذا كلام القاضي».

ثم قال النووي: «وهذا الثاني هو الصحيح، ومعناه أن التقصير غالب في العباد، فمن استُقصِي علي ، ولم يُسامَح هلك، ودخل النار، ولكن الله تعالى يعفو ويغفر ما دون الشرك لمن يشاء».

أمثلة من العرض والنقاش والعتاب!

1. **مناقشة المرائين:**

قال أبوهريرة: حدثني رسول الله ﷺ:

«إن الله إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم، وكل أمة جاثية، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن، ورجل قتل في سبيل الله، ورجلٌ كثير المال، فيقول الله للقارئ: ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟! قال : بلى، يا رب، قال : فماذا عملت في ما علمت؟ قال: كنتُ أقوم به آناء الليل وآناء النهار، فيقول الله له: كذبتَ، وتقول له الملائكة: كذبتَ، ويقول الله له: بل أردت أن يقال: فلان قارئ، وقد قيل ذلك.

ويؤتى بصاحب المال فيقول الله: ألم أوسِّع عليك، حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد؟ قال: بلى، يا رب، قال: فماذا عملت فيما آتيتك؟ قال: كنتُ أصل الرحم، وأتصدق، فيقول الله له: كذبتَ، وتقول له الملائكة: كذبتَ، ويقول الله: بل أردت أن يقال: فلان جواد، فقيل ذلك.

ثم يؤتى بالذي قتل في سبيل الله، فيقول الله: في ماذا قتلت؟ فيقول: أمرت بالجهاد في سبيلك، فقاتلت حتى قُتِلتُ، فيقول الله له: كذبتَ، وتقول له الملائكة: كذبتَ، ويقول الله: بل أردت أن يقال: فلان جريء، فقد قيل ذلك، ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتيَّ، فقال: يا أبا هريرة، أولئك الثلاثة أول خلق الله تُسعَّر بهم النار يوم القيامة». صحيح: رواه الترمذي والحاكم عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: 1713

2. **عرض الرب ذنوب عبده عليه:**

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إن الله يدني المؤمن، فيضع عليه كنفه، ويستره، فيقول: أتعرف ذنب كذا، أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: نعم .. أي رب، حتى إذا قرَّره بذنوبه، ورأى في نفسه أنه هلك، قال: سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم، فيُعطَى كتاب حسناته، وأما الكافرون والمنافقون فيقول الأشهاد: (هَؤُلاء الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى رَبِّهِمْ أَلاَ لَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ) [هود: 18]».

صحيح: رواه الشيخان وأحمد والنسائي عن ابن عمر كما في صحيح الجامع رقم: 1894

وفي رواية سعيد بن جبير: :«فيلتفت يمنة ويسرة، فيقول: لا بأس عليك، إنك في سِتري، لا يطَّلع على ذنوبك غيري».

هذا حديث عظيم، يظهر فيه عظيم فضل الله على عباده المؤمنين وستره لذنوبهم يوم القيامة، فيضع الله كنَفَه على عبده، والكنف مستعار من كنَف الطائر أي جناحه، لأنه يحوط به نفسه ويصون به بيضه، ويستره الله عن أهل الموقف، ويكلِّمه فيها سرا، كي لا يفتضح أمره.

قال علي القاري:

«هذا في عبد لم يغتب ولم يعِبْ ولم يفضح أحدا ولم يشمت بفضيحة مسلم، بل ستر على عباد الله الصالحين، ولم يدع أحدا يهتك عرض أحد على ملأ من الناس، فستره الله وجعله تحت كنف حمايته، جزاء وفاقا من جنس عمله».

والستر في الدنيا يؤنس بحصول المغفرة في الآخرة، وما كان الله ليفضح عبدا من أول زلة، فإذا حصل ستر الله، كان في ذلك إشارة إلى أن لهذا العبد عند الله رصيدا من الخير، وأن له من القَدْر عند الله ما يستره.

عن أنس بن مالك ﷺ أن عمر أُتِي بسارق، فقال: والله ما سرقتُ قط قبلها، فقال: «كذبتَ! ما كان الله ليُسلِّم عبده عند أول ذنبه»، فقطع يده.

وفي رواية: «كذبت وربِّ عمر، ما أخذ الله عبدا عند أول ذنب».

3. **معاتبة الرب عبده فيما وقع منه من تقصير:**

في الحديث:

«إن الله تعالى يقول يوم القيامة:

يا ابن آدم ..

مرضتُ فلم تعدني. قال: يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمتَ أن عبدي فلانا مرض، فلم تعده؟ أما علمت أنك لو عدته لوجدتني عنده؟

يا ابن آدم ..

استطعمتك فلم تطعمني، قال: يا رب .. وكيف أطعمك وأنت رب العالمين؟ قال: أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان، فلم تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟

يا ابن آدم ..

استسقيتك فلم تسقني، قال: يا رب .. كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال: استسقاك عبدي فلان، فلم تسقه، أما إنك لو سقيته، لوجدتَ ذلك عندي». صحيح الجامع رقم: 1916

لاحظ أنه قال في عيادة المريض: «**لوجدْتني عِنْده**»، وفي الإطعام والسقي: «**لوجدتَ ذلك عندي**»، وهذا رمز إلى أفضلية ثواب عيادة المرضى ومواساتهم.

4. **معاتبة الرب للعبد لعدم استغلال نعم الله عليه:**

قال رسول الله ﷺ:

«يؤتى بالعبد يوم القيامة، فيقال له: ألم أجعل لك سمعا وبصرا ومالا وولدا، وسخَّرتُ لك الأنعام والحرث، وتركتك ترأس وتربع، فكنت تظن أنك ملاقيَّ يومك هذا؟ فيقول: لا، فيقول له: اليوم أنساك كما نسيتني».

صحيح: رواه الترمذي عن أبي هريرة وأبي سعيد كما في صحيح الجامع رقم: 7997

هنا يعدِّد الله نعمه على كل عبد جحود ظالم لنفسه، وهي نِعَمٌ لا تُعدُّ ولا تُحصَى، وإنَّ نعمة واحدة منها لا يستطيع عبد شكرها حق شكرها، فكيف بسائر النعم؟!

يقول الله يوم القيامة لهذا العبد:

ألم أجعلك رئيسا مطاعا في قومك؛ وتربع: أي تأخذ ربع الغنيمة، كما كان سيد القوم يفعل في الجاهلية، وكانوا يسمون هذا الربع: المرباع، أي جعلتك مستريحا في هذه الدار، فأبيت إلا أن تصيب التعب بعذاب النار!

وبدلا من أن تقابل نعمي عليك بالشكر والعرفان، قابلتها بالجحود والعصيان، فاستحققت عقوبتي: أمنعك اليوم من رحمتي كما امتنعت عن طاعتي.

وأتركك بلا رعاية كما تركت أمري واستمرأت الغواية.

ويكشف لنا هذا الحديث أن استثمار العبد لنعم الله عليه في ما يرضي ربه من فروض الأعمار، وشرط من شروط إعمار هذه الدار، وهو تكليف إلهي واختبار إجباري سيحاسبنا الله عليه يوم القيامة: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [الأنعام: 165].

5. **عناية الرب بمن أحسن الظن به:**

عن **أنس بن مالك** ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

«يخرج من النار أربعة يُعرَضون على الله عز وجل، فيأمر بهم إلى النار، فيلتفت أحدهم فيقول: أي رب!! قد كنتُ أرجو إن أخرجتني منها أن لا تعيدني فيها، فيقول: فلا نعيدك فيها». صحيح: رواه أحمد في مسنده 221/3

ذكر من الأربعة واحدًا، وحكم عليه بالنجاة، وسبب نجاته: حسن ظنه بالله، وفيه تنبيه على عجز هؤلاء الثلاثة وعدم معرفتهم بالله عز وجل، فقد أخرجهم الله من النار، وعرَّضهم لأن يسألوه ويسترحِموه، لكنهم لعجزهم وفساد طبعهم لم يفطنوا إلى أن الله تعالى لم يخرجهم من النار ويعرضهم عليه لغير سبب، فأبت عليهم شقوتهم وظلمة قلوبهم إلا الصمت والخذلان، فأعيدوا إلى النار ما عدا ذلك المتيقظ منهم الذي قال: **قد كنتُ**

أرجو إن أخرجتني منها أن لا تعيدني فيها، فإنك أهل لأن تُتبع النعمة بالنعمة، وتنقذ من الجحيم إلى الراحة والنعيم.

6. **مناقشة الأمم الأخرى لإقامة الحجة عليهم**

ومن مشاهد يوم القيامة ما رواه أبو سعيد الخدري ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ:

«**يُدعَى نوح يوم القيامة، فيقول: لبيك وسعديك يا رب، فيقول: هل بلغت؟ فيقول: نعم يا رب، فيقول لأمته: هل بلَّغَكم؟ فيقولون: ما أتانا من نذير.**

وفي رواية الترمذي:

«**فيقولون: ما أتانا من نذير، وما أتانا من أحد**».

فيقال: من يشهد لك؟!

فيقول: محمد ﷺ وأمته.

فيشهدون أنه قد بلَّغ، ويكون الرسول عليهم شهيدا، فذلك قوله: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: 143] ». صحيح: رواه البخاري في صحيحه رقم: 3339

جعل الله هذه الأمة الأخيرة هي الأمة الوسط، وهي الأمة الشاهدة على جميع الأمم بما أخبرها الله على لسان نبيها وبلغها من قرآن ربها.

7. **سؤال العاصي الخائف من ربه:**

قال رسول الله ﷺ:

«كانَ رجلٌ ممَّن كان قبلكم لم يعمل خيراً قطُّ؛ إلا التوحيد، فلما احتُضر قال لأهله:

انظروا .. إذا أنا متُّ أن يحرِّقوه حتى يدعوه حمما، ثم اطحنوه، ثم اذروه في يوم ريح، ثم اذروا نصفه في البر، ونصفه في البحر، فوالله؛ لئن قدر الله عليه ليعذبنه عذابا لا يعذبه أحدا من العالمين، فلما مات فعلوا ذلك به، فأمر الله البر فَجَمَعَ ما فيه، وأمر البحر فَجَمَعَ ما فيه، فإذا هو قائم في قبضة الله، فقال الله عز وجل:

يا ابن آدم! ما حملك على ما فعلت؟

قال: أي ربِّ! من مخافتك (وفي طريق آخر: من خشيتك وأنت أعلم).

قال: فغفر له بها، ولم يعمل خيراً قطُّ إلا التوحيد». صحيح: رواه أحمد عن أبي هريرة كنا في السلسلة الصحيحة رقم: 3048

غفر الله لهذا العبد –وقد قيل أنه كان نباشا للقبور– لأنه عرف قدر ربه، فخاف منه، والخشية لا تكون إلا من مؤمن مُصدِّق؛ وكل من خاف الله فقد آمن به وعرفه، وأقرب الطرق الموصلة إلى الله: مخافته، وأن لا يأمن العبد مكره.

وقوله: «لئن قدر الله عليَّ»: قيل أنه جَهْلٌ منه ببعض صفات الله تعالى، وهو أنه على كل شيء قدير، ولا يُخرِجه ذلك من دائرة الإيمان، أو أنه قال ذلك لفرط خوفه من عذاب الله، فغلب خوفه فهمَه.

6. تطاير الصحف:

أخرج أبو داود والإمام أحمد عن عائشة رضي الله عنها أنها ذكرت النار فبكت، فقال رسول الله ﷺ: ما يبكيك؟ قلت: ذكرت النار فبكيت، فهل تذكرون أهليكم يوم القيامة؟ فقال:

«**أما في ثلاثة مواطن فلا يذكر أحدٌ أحداً: عند الميزان حتى يُعْلَم أيخِفُّ ميزانه أم يثقل.**

وعند تطاير الصحف حتى يعلم أين يقع كتابه في يمينه أم في شماله أم من وراء ظهره.

وعند الصراط إذا وُضِع بين ظهري جهنم حتى يجوز». صحيح: رواه إسحاق بن راهويه في المسند 3/ 740

وقد قال الله تعالى:

﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:13-14]

والطائر هو عمل العبد؛ وشُبِّه بالطائر لأن العمل يعلو بالإنسان، أو يهوي به.

قال السُّدِّي في تفسير هذه الآية:

«الكافر يخرج له يوم القيامة كتاب، فيقول: رب إنك قد قضيت أنك لست بظلام للعبيد، فاجعلني أحاسب نفسي، فيقال: اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ اليَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا [الإسراء:14] ». ~~لكن~~.

لكن، ماذا إذا كان العبد أميا يجهل القراءة والكتابة؟!

قال قتادة:

«يقرأ يومئذ من لم يكن قارئا في الدنيا».

وحُكِي عن الحسن البصري أنه قال:

«قد عدل –والله –فيك، من جعلك حسيب نفسك».

وقال رحمه الله ناصحا:

«أعِدَّ للسؤال جوابا، وللجواب صوابا، وإلا فأعد للنار جلبابا».

وما أصدق وصف ابن المبارك لمشهد تطاير الصحف:

وطارت الصُّحْف في الأيدي مُنَشَّرَة... فيها السرائر والأخبار تطَّلعُ

فكيف سهوك والأنباء واقعةٌ ... عما قليل ولا تدري بما تقعُ

أفي الجنان وفوزٍ لا انقطاع له ... أم الجحيم فلا تبقي ولا تدَعُ

تهوي بساكنها طورا وترفعهم ... إذا رجَوْا مخرجا من غَمِّها قُمِعوا

طال البكاء فلم يُرْحَمْ تضرُّعهم ... فيها ولا رقية تغني ولا جزَع

لينفعِ العلم قبل الموت عالِمَه ... قد سال قوم بها الرُّجْعَى فما رجعوا

الناس في استلام الصحف فريقان:

وينقسم الناس في استلام الصحف إلى فريقين: من يؤتى كتابه بيمينه، ومن يؤتى كتابه بشمال أو وراء ظهره.

قال الطبري:

«وأما من أعطي كتابه منكم أيها الناس يومئذ وراء ظهره، وذلك أن جعل يده اليمنى إلى عنقه، وجُعِل الشمال من يديه وراء ظهره، فيتناول كتابه بشماله من وراء ظهره، ولذلك وصفهم جلَّ ثناؤه أحيانًا أنهم يؤتون كتبهم بشمائلهم، وأحيانًا أنهم يؤتونها من وراء ظهورهم».

وكونه يؤتى كتابه من وراء ظهره؛ لأنه استدبر كتاب الله وأمره، وأعطاه ظهره في الدنيا؛ فكان من العدل أن يؤتى كتاب أعماله يوم القيامة وراء ظهره.

والمسألة ليست باختيار العبد، فإذا أذن الله لعبد بمد يد تبقى يده الأخرى عاجزة، لا يستطيع مدَّها، ثم الكتاب نفسه هو الذي يطير نحو اليد، فإما أن يذهب إلى اليد اليمنى أو اليسرى.

دقة الكتابة!

قال تعالى: وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا [الكهف:49]

كان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية يقول:

«يا وليتنا: ضجوا إلى الله من الصغائر قبل الكبائر».

هل يُعْطَى العاصي كتابه بيمينه أم بشماله؟

يُعْطَى العاصي كتابه بيمينه، أما الذي يُعْطَى كتابه يوم القيامة بشماله فهو الكافر.

قال يوسف بن عمرو من المالكية:

«اختُلِف في عصاة الموحدين، فقيل: يأخذون كتبهم بأيمانهم، وقيل بشمائلهم، وعلى القول بأنهم يأخذونها بأيمانهم. قيل: يأخذونها قبل الدخول في النار، فيكون ذلك علامة على عدم خلودهم فيها.

وقيل: يأخذونها بعد الخروج منها، والله أعلم».

7. الميزان

وموعد الميزان بعد الحساب، وهو تكملة له، أو بمثابة حساب تفصيلي بعد الحساب الإجمالي.

قال الإمام القرطبي:

«وإذا انقضى الحساب كان بعد وزن الأعمال؛ لأن الوزن للجزاء، فينبغي أن يكون بعد المحاسبة، فإن المحاسبة لتقدير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها؛ ليكون الجزاء بحسبها».

والميزان من عالم الغيب الواجب الإيمان به؛ وذلك لما رواه عمر بن الخطاب ﷺ أن النبي ﷺ قال:

«الإيمان: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، وتؤمن بالجنة والنار والميزان، وتؤمن بالغيب بعد الموت، وتؤمن بالقدَر خيره وشره». صحيح: رواه البيهقي عن عمر كما في صحيح الجامع رقم: 2798

حجم الميزان:

حجم هذا الميزان ضخم هائل لا يحيط به عقل بشر، بحيث لو وُضِعَت السموات والأرض في كفة الميزان لوسعها، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال:

«إن نبي الله نوحا ﷺ لما حضرته الوفاة قال لابنه: إني قاص عليك الوصية، آمرك باثنتين، وأنهاك عن اثنتين،آمرك بلا إله إلا الله، فإن السموات السبع، والأرضين السبع، لو وُضِعَت في كفة، ووضعت لا إله إلا الله في كفة، رجحت بهن لا إله إلا الله، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كن حلقة مبهمة؛ قصمتهن لا إله إلا الله.

وسبحان الله وبحمده؛ فإنها صلاة كل شيء، وبها يُرزَق الخلق.

وأنهاك عن الشِّرك والكِبْر».

صحيح: رواه البخاري في الأدب المفرد وأحمد والبيهقي كما في السلسلة الصحيحة رقم: 134

هل هو ميزان واحد أم عدة موازين؟

هذه مسألة خلافية، والأصح أنه ميزان واحد، والمراد بالجمع الذي جاء في سورة الأنبياء: الموزونات، وهي متعددة.

قال تعالى: ﴿ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا﴾:

قال ابن كثير:

«الأكثر على أنه إنما هو ميزان واحد، وإنما جُمِع باعتبار تعدد الأعمال الموزونة فيه».

وقال ابن حجر:

«ولا يُشكِل بكثرة من يوزن عمله، لأن أحوال القيامة لا تُكيَّف بأحوال الدنيا».

دقة الميزان!

دقة الميزان ذرية، وحساسيته خردلية، فمثاقيل الذر وحبات الخردل من الأعمال توزن بكل دقة على كفتي الميزان.

لذا لما استطعم مسكينٌ عائشة أم المؤمنين، وبين يديها عنب، قالت لإنسان: خذ حبة فأعطه إياها، فجعل ينظر إليها ويعجب، فقالت عائشة: أتعجب؟! كم ترى في هذه الحبة من مثقال ذرة؟!

الذرة لها قيمة على الميزان غدا، فلا تستحقر ذرة خير، ولا تستهوِن بذرة شر، واذكر -كلما نسيتَ- عِنَبة أم المؤمنين، ونافس بها غيرك من المؤمنين.

وما أصدق نصيحة ابن حزم حين أوصاك قائلا:

«لا تحقر مما ترجو به تثقيل ميزانك يوم البعث أن تُعجِّله الآن وإن قلَّ، فإنه يحطُّ عنك كثيرا مما لو اجتمع لقذف بك في النار».

ذرات الحقوق والواجبات!

والذرات ليست فقط ذرات العمل الصالح الذي ينفع صاحبه، بل ذرات الحقوق والواجبات كذلك، وقد روت عائشة ﵂ أن رجلا قعد بين يدي النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إن لي مملوكين يكذِّبونني ويخونونني ويعصونني، وأشتمهم وأضربهم، فكيف أنا منهم؟

قال ﷺ:

«**يُحسَب ما خانوك وعصوك وكذَّبوك، وعقابك إياهم، فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم؛ كان كفافًا لا لك ولا عليك.**

وإن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم؛ كان فضلاً لك.

وإن كان عقابك إياهم فوق ذنوبهم، اقتُصَّ لهم منك الفضل».

قال: فتنحى الرجل فجعل يبكي ويهتف، فقال رسول الله ﷺ:

«**أما تقرأ كتاب الله ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾**؟

فقال الرجل: والله يا رسول الله ما أجد لي ولهؤلاء شيئًا خيرًا من مفارقتهم، أشهدكم أنهم أحرار كلهم».

صحيح: صحيح الترمذي رقم: 2531

الميزان من مواطن الشفاعة!

وزن الأعمال على كفتي الميزان موقف رهيب رهيب، لذا سيقف نبينا ﷺ عند الميزان ليشفع لنا عنده، فعن أنس بن مالك ﵁ قال:

سألت النبي ﷺ أن يشفع لي يوم القيامة فقال: «**أنا فاعل**».

قلت: يا رسول الله فأين أطلبك؟

قال: «**اطلبني أول ما تطلبني على الصراط**».

قلت: فإن لم ألقك على الصراط؟

قال: «**فاطلبني عند الميزان**».

قلت: فإن لم ألقك عند الميزان؟

قال: «**فاطلبني عند الحوض، فإني لا أخطئ هذه الثلاث المواطن**». صحيح: رواه الترمذي وأحمد والضياء المقدسي كما في السلسلة الصحيحة رقم: 2630

ولن يقف النبي ﷺ عند الميزان – والله أعلم – إلا ليشفع لأناس خفَّت موازينهم، أو تساوت حسناتهم مع سيئاتهم.

ما الذي سيوزن؟

أولا: الأشخاص

يوزن العبد ليظهر قدر ما فيه من إيمان بالله عز وجل، فعن زر بن حبيش رضي الله عنه عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان يجتني سواكًا من الأراك، وكان دقيق الساقين، فجعلت الريح تكفؤه، فضحك القوم منه، فقال رسول الله ﷺ: «مم تضحكون»؟ قالوا: يا نبي الله من دقة ساقيه، فقال: «والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أحد». السلسلة الصحيحة رقم: 2750

وفي الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة، اقرؤوا: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾[الكهف:105]». صحيح: رواه البخاري عن أبي هريرة كما في صحيح البخاري رقم: 4729

وكما يخف الميزان بالكافرين يثقل بالصالحين، وكلما زاد الإيمان رجحت كفة الميزان، وهل هناك أعظم إيمانا من الصحابة؟ ولذا فلا موازين أثقل من موازينهم؟!

روى ابن عمر رضي الله عنهما قال: خرج علينا رسول الله ﷺ ذات غداة بعد طلوع الشمس فقال:

«**رأيتُ قبيل الفجر كأني أُعطيتُ المقاليد والموازين، فأما المقاليد فهذه المفاتيح، وأما الموازين فهي التي تزنون بها، فوُضِعَت في كفة، ووُضِعَت أمتي في كفة، فوُزِنْتُ بهم فرجَحْتُ، ثم جيء بأبي بكر فوُزِنَ بهم فَوَزَن، ثم جيء بعمر فوُزِن فَوَزَن، ثم جئ بعثمان، فوُزِن بهم، ثم رُفِعَتْ**». صحيح: رواه أحمد عن ابن عمر كما في مسند أحمد رقم: 5469 وصحَّحه أحمد شاكر والألباني.

وقد سبق أبو بكر الصديق وعمر وعثمان رضي الله عنهم أجمعين، ورجح ميزانهم على الأمة جميعا، وذلك لسابق فضلهم وقوة إيمانهم وعظمة بذلهم، وما اطلع الله عليه من قلوبهم.

والسؤال هنا:

كم تزن أنت عند الله؟

والأَوْلى بك أن تجيب عن هذا السؤال بصورة عملية، ووقفة مع النفس عُمَرية، بما يمكن أن نلخِّصه في هذه الوصية: زن نفسك اليوم قبل أن توزَن غدا.

ثانيا: الأعمال:

الأعمال توزن، وتُجسَّد قبل أن توزن، فتظهر أعمال الطائعين في صورة حسنة، وأعمال المسيئين في صورة قبيحة، ثم توزن.

ويدل على هذا ما ما رواه أبو الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول:

«**ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق، وإن صاحب حسن الخلق ليبلغ به درجة صاحب الصوم والصلاة**».

صحيح :رواه الترمذي عن أبي الدرداء كما في صحيح الجامع رقم: 5726

وما رواه أبو مالك الأشعري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

«**الطهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان**». صحيح: رواه أحمد ومسلم والترمذي عن أبي مالك الأشعري كما في صحيح الجامع رقم: 3957

وقول النبي ﷺ:

«**من احتبس فرسًا في سبيل الله إيمانًا بالله وتصديقًا بوعده، فإن شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة**». **صحيح :رواه أحمد والبخاري والنسائي عن أبي هريرة كما في** صحيح الجامع رقم: 5967

ويرى الحافظ ابن حجر أن قول النبي ﷺ: «**وروثه وبوله في ميزانه**»: يريد ثواب ذلك لا أن الأرواث بعينها توزن.

ثالثا: وزن صحائف الأعمال

فعن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ أن النبي ﷺ قال:

«**إن الله سَيُخَلِّصُ رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً – أي كتابًا – كل سجل مثل مد البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئًا؟ أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: أفلك عذر؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة؛ فإنه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، فيقول: احْضُرْ وزنك، فيقول: يا رب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟! فقال: إنك لا تُظلَم، قال: فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة؛ فلا يثقل مع اسم الله تعالى شيء**».

صحيح: رواه الترمذي وابن ماجة كما في صحيح الجامع رقم: 1776، والصحيحة: 135

ولا تعارض، فقد يوزن الثلاثة: الشخص والعمل وصحيفة الأعمال.

وهذا ما رجحه الشيخ حافظ الحكمي فقال:

«والذي استظهر من النصوص – والله أعلم – أن العامل وعمله وصحيفة عمله – كل ذلك يوزن، لأن الأحاديث التي في بيان القرآن ، قد وردت بكل ذلك، ولا منافاة بينها ، ويدل كذلك ما رواه أحمد عن عبد الله بن عمرو في قصة صاحب البطاقة بلفظ: قال رسول الله ﷺ : «**توضع الموازين يوم القيامة، فيؤتى بالرجل، فيوضع في كفة، فيوضع ما أحصي عليه، فتمايل به الميزان، فيُبْعَث به إلى النار، فإذا أُدْبِر به إذا صائح يصيح من عند الرحمن، يقول: لا تعجلوا، لا تعجلوا، فإنه قد بقي له، فيؤتى ببطاقة فيها: لا إله إلا الله،، فتوضع مع الرجل في كِفَّة، حتى يميل به الميزان**».

فهذا يدل على أن العبد يوضع هو وحسناته وصحيفتها في كفة، وسيئاته مع صحيفتها في الكفة الأخرى، وهذا غاية الجمع بين ما تفرق ذكره في سائر أحاديث الوزن».

ما يثقِّل الميزان!

العمل الأول: الإخلاص

عن صهيب الرومي ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «**صلاة الرجل تطوع حيث لا يراه الناس تعدل صلاته على أعين الناس**

خمسًا وعشرين». صحيح: رواه أبو يعلى عن صهيب كما في صحيح الجامع رقم: 3821

وسبب هذا أنها أقرب إلى الإخلاص وأبعد عن الرياء.

ولأهمية الإخلاص بدأ البخاري صحيحه بحديث: «**إنما الأعمال بالنيات**»، وختمه بحديث: «**كلمتان حبيبتان إلى الرحمن، خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم**»، فالنية يتوقف عليها صلاح العمل وفساده، والميزان هو ما يتبين به قيمة العمل أو بطلانه، وبالتالي سعادة المرء أو شقاؤه، فكان في هذا الترتيب تنبيها للقارىء إلى إخلاص النية في البداية، لما يترتب عليه من ثقل الميزان في النهاية.

العمل الثاني: الخلق الحسن

عن أبي الدرداء ﷺ أن رسول الله ﷺ قال:

«ما شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله ليبغض الفاحش البذي».

صحيح: رواه الترمذي عن أبي الدرداء كما في صحيح الجامع رقم: 5632

وعنه أيضا ﷺ أن رسول ﷺ قال:

«أثقل شيء في الميزان الخلق الحسن».

صحيح: رواه ابن حبان عن أبي الدراء كما في صحيح الجامع رقم: 134

وصاحب الخلق الحسن عمل قليلا وأُجِر كثيرا، لذا يدرك أصحاب الأعمال الكبيرة والعبادات العظيمة.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجات قائم الليل صائم النهار».

صحيح: رواه أحمد والحاكم عن عائشة كما في صحيح الجامع رقم: 1620

قال أبو الطيب محمد شمس الدين آبادي رحمه الله:

«وإنما أُعطي صاحب الخلق الحسن هذا الفضل العظيم؛ لأن الصائم والمصلي في الليل يجاهدان أنفسهما في مخالفة حظهما، وأما من يحسن خلقه مع الناس مع تباين طبائعهم وأخلاقهم، فكأنه يجاهد نفوسًا كثيرة، فأدرك ما أدركه الصائم القائم، فاستويا في الدرجة بل ربما زاد».

العمل الثالث: العمل الشاق على البدن وعلى الروح

قال إبراهيم بن أدهم:

«أثقل الأعمال في الميزان أثقلها على الأبدان».

كلما ثقل عليك العمل، كان أثقل في ميزانك.

فصدقة الفقير المحتاج من ماله أثقل في الميزان من صدقة الغني الموسر ببعض ماله.

وركعتان من عبد منهك الجسد من السعي على الرزق طوال النهار أثقل من عبادة مستريح البدن.

العمل الرابع: الصبر على فقد الولد

قال رسول الله ﷺ:

«**بخ بخ لخمس ما أثقلهن في الميزان: لا إله إلا الله وسبحان الله والحمد لله والله أكبر، والولد الصالح يُتوَفى للمرء المسلم فيحتسبه**». صحيح: رواه البزار عن ثوبان والنسائي وابن حبان والحاكم عن أبي سلمى كما في صحيح الجامع رقم: 2817

وبخ بخ .. كلمة تقال عند المدح والرضا بالشيء، وتُكرَّر للمبالغة.

فصبرك على فقد الولد فيه مرارة، كلما زادت رجحت كفة الميزان بحسب مقدار الإيلام، والاحتساب هو رضا القلب بفعل الرب، والرضا مقابل الرضا، فرضا العبد عن قضاء الرب يقابله رضا الرب عن العبد، وإذا رضي الله عن عبده، أدهشه بعطائه.

رُوِي أن داود عليه السلام سأل ربه أن يريه الميزان، فلما رآه غُشِي علي ، فلما أفاق قال: يا إلهي .. من الذي يقدر أن يملأ كفته حسنات؟! فقال:

«يا داود .. إني إذا رضيت عن عبدي ملأتها بتمرة».

العمل الخامس: الحمد لله

قال رسول الله ﷺ:

«**والحمد لله تملأ الميزان**».

صحيح: رواه مسلم وأحمد والترمذي عن أبي مالك الأشعري كما في صحيح الجامع رقم: 3957

أي أن عِظَم أجر الحمد يملأ ميزان الحامد لله؛ لأن الحمد تعبير عن الرضا، والرضا أفضل أعمال القلوب، كما أن الجهاد ذروة أعمال الجوارح.

الخامس: الحكمة من الميزان

إن قيل: أليس الله عز وجل يعلم مقادير أعمال العباد، فما الحكمة في وزنها؟

قالوا في ذلك:

- إظهار عدل الله عز وجل، وأنه لا يظلم عباده مثقال ذرة.
- إظهار فضل الله، فلو دخل أهل الجنة الجنة قبل الوزن، فربما ظن الطائع أنه نال درجات الجنة عن استحقاق، فتوزن أعماله؛ ليعلم أن ما ناله سببه فضل الله، ولو دخل أهل النار النار قبل الوزن، لتوهَّم المسيء أن عذابه فوق ما يستحق، فتوزن أعماله؛ ليعلم أن عذابه دون ما ارتكب من الحرام.
- الميزان بمثابة حساب تفصيلي بعد الحساب الإجمالي الذي عُرِف بتناول الصحف.
- إقامة الحجة على العباد بدقة الحساب.
- تعريف العباد بأثقل أعمالهم من الحسنات والسيئات.
- إظهار علامة السعادة والشقاوة، فيزداد المؤمنون سعادة، ويزداد الأشقياء تعاسة.

السادس: أثر الإيمان بالميزان

إذا آمنت بالميزان، وأنَّه ميزان حقيقي له كفتان ، توضع حسناتك في كفة، وسيئاتك في كفة ، وأن كلُّ عملٍ ستبذله في هذه الحياة سيوزن غدا، فستزداد إقبالا على الحسنات، وبعدا عن السيئات، بل وستصبح فوق ذلك انتقائيا: تنتقي من الحسنات أثقلها، وتحذر من السيئات أخفها على نفسك وأثقلها في ميزانك.

واذكر الميزان كل يوم، وليكن ذلك عند كل نومة، عن طريق هذا الدعاء النبوي:

«**كان إذا أخذ مضجعه من الليل قال:**

بسم الله وضعت جنبي، اللهم اغفر لي ذنبي، واخسأ شيطاني، وفُكَّ رهاني، وثقِّل ميزاني، واجعلني في النَّديِّ الأعلى».

صحيح: رواه أبوداود والحاكم عن أبي الأزهر كما في صحيح الجامع رقم: 4649

ومعنى: «**واخسأ شيطاني**»: اجعله مطرودا عني ومردودا عن إغوائي، والندِيُّ هو المجلس أو القوم، والأعلى: يريد بهم الملا الأعلى وهم الملائكة.

8. الحوض

الحوض موجود الآن:

ثبت عن النبي ﷺ أنه خطب ذات يوم في أصحابه، فأقسم قائلا:

«**وإني والله لأنظر إلى حوضي الآن**».

صحيح: رواه البخاري عن عقبة بن عامر كما في صحيحه رقم: 6590 ومسلم رقم: 2296

وللنبي ﷺ منبر يخطب به على الحوض، ففي صحيح البخاري:

«**ومنبري على حوضي**». صحيح: رواه الشيخان والترمذي عن أبي هريرة كما في صحيح الجامع رقم: 5587

أي يكون للنبي ﷺ يوم القيامة منبر، فيُنصَب على الحوض، ثم يصعد عليه النبي ﷺ، ويدعو أمته إليه: هلموا هلموا، فيتسارع إليه الناس، ويتزاحمون على حوضه. قال رسول الله ﷺ:

«لتزدحمن هذه الأمة على الحوض ازدحام إبل وردت لخمس».

حسن: رواه الطبراني عن العرباض كما في صحيح الجامع رقم: 5068

أَي حُبِسَت هذه الإبل عن الماء أربعة أيام حتَّى اشْتَدَّ عطشها، ثمَّ وردت على الماء في اليوم الخامس، فكما أَنَّها تزدحم عليه لشدَّة ظمئها، فكذلك تزدحم هذه الأمة على الحوض يوم القيامة لشدَّة الْحر وقُوَّة العطش، فتخيل نفسك وأنت في شدة هذا الحر والعطش، تلمح حوضا ضخما ، ماؤه من الجنة، ولا تجري ماؤه على طين بل على تربة جنة النعيم.

مساحة الحوض:

قال النبي ﷺ :

«**حوضي كما بين صنعاء والمدينة، فيه الآنية مثل الكواكب**» .

صحيح: رواه الشيخان عن حارثة بن وهب وعن المستورد كما في صحيح الجامع رقم: 3160

وقال ﷺ في حديث آخر:

«**حوضي مسيرة شهر، وزواياه سواء**».

رواه الشيخان عن ابن عمرو كما في صحيح الجامع رقم: 3161

وهو هنا يصف شكله، فأضلاع الحوض متساوية، وهو مربع الشكل.

وفي صحيح مسلم: «**عرضه مثل طوله**». صحيح: رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص كما في صحيح مسلم رقم: 2300

صفة مائه وأثره:

قال النبي ﷺ :

«**وماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وكيزانه كنجوم السماء، من يشرب منه، فلا يظمأ أبدا**».

صحيح: رواه الشيخان عن عبدالله بن عمرو كما في صحيح الجامع رقم: 3161

هنا الحدُّ الفاصل بين عهدين: عهد العطش المتكرر الدنيوي وعهد الري الأبدي.

هنا يمحو الله الإحساس بالعطش إلى الأبد.

هنا يصبح الشرب للتلذذ فحسب، فكل شراب في الجنة من خمر أو عسل أو لبن أو ماء هو لتذوق ألوان المُتَع ليس غير.

ولكل شارب من الحوض إشراقة وجه مميزة. قال رسول الله ﷺ:

«**من شرب منه شربة لم يظمأ أبدا، ولم يسودَّ وجهه أبدا** ..». صحيح: رواه ابن حبان عن يزيد بن الأخنس السلمي كما في صحيح ابن حبان رقم: 6457

فما إن تشرب من الحوض حتى تسري في وجهك إشراقة أبدية وأضواء نورانية رائعة بهية.

منبع الحوض:

قال رسول الله ﷺ:

«فيه ميزابان يُمَدَّان من الجنة، أحدهما من ذهب، والآخر من ورِق». صحيح: رواه ابن حبان عن ثوبان كما في صحيح ابن حبان: 6456

لكن .. من أين في الجنة؟!

منبع الحوض من نهر الكوثر، حيث يصُبُّ نهر الكوثر ماءه في الحوض عن طريق ميزابين عظيمين عجيبين، ليظل ماء الحوض جاريا متدفقا ليس له انقطاع ولا نقصان ولا ركود.

آنية الحوض:

كيف يشرب الناس من الحوض؟!

قال رسول الله ﷺ:

«إن في حوضي من الأباريق بعدد نجوم السماء».

صحيح: رواه الترمذي عن أنس كما في صحيح الجامع رقم: 2134

وقال ﷺ:

«عدد آنية الحوض كعدد نجوم السماء».

صحيح: رواه مسلم عن أنس والبخاري عن عائشة كما في صحيح الجامع رقم: 3991

أي أواني كثيرة جدا، والمراد المبالغة لا التساوي في العدد في الحقيقة، فلا خوف من التزاحم الذي يقود إلى الحرمان، بل كل عبد له آنيته الخاصة به، وهي في انتظاره، لا يأخذها سواه.

كثرة الواردين على الحوض:

ما نسبة صحابة رسول الله ﷺ إلى كل من يَرِد الحوض؟!

وما هي فرصتنا في الفوز بهذا الكنز؟!

اسمع:

عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ، فنزلنا منزلا، فقال رسول الله ﷺ:

«ما أنتم بجزء من مائة ألف جزء ممن يَرِد عليَّ الحوض» . صحيح: رواه أحمد وأبوداود والحاكم عن زيد بن أرقم كما في صحيح الجامع رقم: 5557

وفي رواية: قيل لزيد: كم كنتم يومئذ؟! قال: كنا سبعَ مائة أو ثمانَ مائة.

وهذه والله بشارة عظيمة، تغري اليوم كل مشتاق، وتلهب عزيمة كل كسول.

المطرودون عن الحوض:

عن ابن أبي مُلَيْكَة عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، قالت: قال النبي ﷺ:

«**إني على الحوض حتى أنظر من يَرِدُ عَلَيَّ منكم، وسيؤخذ ناس دوني، فأقول: يا رب .. مني ومن أمتي، فيقال: هل شعرت ما عملوا بعدك؟ والله ما برحوا يرجعون على أعقابهم**». صحيح: صحيح البخاري رقم: 6593

فكان ابن أبي مليكة -راوي الحديث عن أسماء- يقول:

«اللهم إنا نعوذ بك أن نرجع على أعقابنا أو نفتن عن ديننا».

والذي يمنع هؤلاء من ورود الحوض هم حُرَّاس الحوض من الملائكة، والرجوع على الأعقاب يكون بالكفر والردة عياذا بالله، والفتنة في الدين تكون بالمجاهرة بالكبائر والاستخفاف بالمعاصي واتباع أهل الزيغ والأهواء.

هذا التبديل والتغيير هو الذي يُغضِب رسول الله ﷺ يوم القيامة!

قال عبد الله بن سلام:

«يا رسول الله، إنا نجدك فِي الكتب قائما عند العرش، محمرة وجنتاك مما أحدثت أمتك بعدك».

ومن المطرودين عن الحوض كذلك:

الظلمة المسرفون في الظلم ومعاداة الحق وحرب أهله وإذلالهم.

أخرج الترمذي والحاكم عن كعب بن عجرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ خرج عليهم يوما، وقال:

«**إنه سيكون بعدي أمراء، فمن دخل عليهم فصدَّقهم بكذبهم، وأعانهم على ظلمهم، فليس مني، ولستُ منه، وليس بواردٍ علي الحوض، ومن لم يدخل عليهم، ولم يُعِنْهم على ظلمهم، ولم يصدِّقهم بكذبهم فهو مني وأنا منه، وهو واردٌ عليَّ الحوض**». صحيح ابن حبان رقم: 279

والحديث يحذِّر غاية التحذير من أخطار ثلاثة مُحْدِقة بالمؤمن:

- الدخول على الظالمين أي مجالستهم.
- تصديق أكاذيبهم، ومن هذه الأكاذيب: إنجازاتهم الزائفة، وافتراءاتهم على المؤمنين.
- إعانتهم على ظلمهم: وذلك بقول أو فعل أو مجرد رضا قلبي.

والتحذير من هذه الموبقات صحِبه تهديد فاعلها بتبرؤ النبي ﷺ، وحرمانه من ورود الحوض، كما صحِبه تشويق الممتنع عن الوقوع فيها بانتسابه للنبي ﷺ، وشربه من حوضه.

ولذا جاء في مسند أحمد:

«**ومن أتى أبواب السلطان افتُتِن، وما ازداد أحدٌ من السلطان قربا إلا ازداد من الله بعدا**». صحيح: رواه الطبراني عن ابن عباس كما في صحيح الجامع رقم: 6124 والسلسلة الصحيحة رقم: 1272

قال الإمام المناوي في سبب هذه الفتنة:

«وذلك لأن الداخل عليهم، إما أن يلتفت إلى تنعمهم فيزدري نعمة الله عليه.

أو يُهمِل الإنكار عليهم مع وجوبه فيفسق.

وإما أن يطمع في دنياهم، وذلك هو السُّحْت».

حوضان!!

لكل مشتاق إلى الشرب من الحوض، ولكل طامع في التخلص النهائي من العطش، لابد من دفع الثمن، والثمن هو العمل، والتعب هو مفتاح الراحة.

قال ابن القيم:

«فله ﷺ حوضان عظيمان:

- حوضٌ فِي الدنيا، وهو سُنَّته وما جاء به.
- وحوضٌ في الآخرة.

فالشاربون من هذا الحوض في الدنيا هم الشاربون من حوضه يوم القيامة، فشاربٌ ومحروم، ومستقِلٌّ ومستكثر».

9. الصراط

ما الصراط؟!

جسر حسي منصوب فوق جهنم، يعبر الناس عليه على قدر أعمالهم، وأثناء مرورهم عليه، تُبدَّل الأرض غير الأرض، كما في صحيح مسلم عن عائشة قالت: سألتُ رسول الله ﷺ عن قوله عز وجل: (يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ) [إبراهيم: 48]، فأين يكون الناس يا رسول الله؟ فقال: «**على الصراط**». صحيح: صحيح مسلم رقم: 2791

ويعمُّ الظلام الأرض في هذا اليوم، لكن يُعطى المؤمنون نورهم بيمينهم وبين أيديهم، ليستضيئوا به على الصراط، وليكون لهم دليلاً إلى الجنة، بينما المنافقون في الظلمات يغرقون.

وعند هذا الموضع يفترق المنافقون والمؤمنون، فيتخلف المنافقون، ويسبق المؤمنون، وعندها يستنجد المنافقون بالمؤمنين وينادون: (انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ) [الحديد:13]، فإذا رأى المؤمنون انطفاء نور المنافقين أشفقوا أن ينطفىء نورهم كذلك، فقالوا: ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا﴾، ثم يقال للمنافقين: (ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُوراً) [الحديد:13]:

أي ارجعوا إلى المكان الذي قُسِّمت فيه الأنوار، فيرجعون، فإذا رجعوا، ضُرِب بينهم وبين المؤمنين بسور وحاجز منيع يحول بين الفريقين: {بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ} [الحديد:13]، فهذا هو الوقت الذي يبدأ فيه افتراق المنافقين عن المؤمنين.

الظالمون في الظلمات!

والظُّلمة التي يغرق فيها المنافقون هي نفسها التي يغرق فيها الظالمون، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال:

«**اتقوا الظلم، فإنّ الظلم ظلمات يوم القيامة**». **صحيح: رواه أحمد والطبراني والبيهقي عن ابن عمر كما في** صحيح الجامع رقم: 101

والظاهر أن عقوبة الظلم يبدأ إنزالها على الظالمين قبل الصراط، حين يفترق المؤمنون عن المنافقين.

قال الإمام القرطبي:

«ظاهره أن الظالم يُعاقَب يوم القيامة، بأن يكون في ظلمات متوالية، يوم يكون المؤمنون في نور يسعى بين أيديهم وبأيمانهم، حين يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا: ﴿انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾، فيقال لهم: ﴿ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾».

لكن لماذا هذه العقوبة الشديدة للظالمين؟!

ذكر الحافظ ابن حجر السبب فقال:

«الظلم يشتمل على معصيتين:

- أخذ مال الغير بغير حق.
- ومبارزة الرب بالمخالفة.

والمعصية فيه أشد من غيرها؛ لأنه لا يقع غالبا إلا بالضعيف الذي لا يقدر على الانتصار.

وإنما ينشأ الظلم عن ظلمة القلب؛ لأنه لو استنار بنور الهدى لاعتبر، فإذا سعى المتقون بنورهم الذي حصل لهم بسبب التقوى، اكتنفت ظلمات الظُّلْم الظالم، حيث لا يغني عنه ظلمه شيئا».

هل يمر الكفار بالصراط؟!

والجواب: كلا، لأنهم يسقطون في النار قبلها.

قال النبي ﷺ:

«**ينادي مناد: ليذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون، فيذهب أصحاب الصليب مع صليبهم، وأصحاب الأوثان مع أوثانهم، وأصحاب كل آلهة مع آلهتهم، حتى يبقى من كان يعبد الله، من بر أو فاجر، وغبَرات من أهل الكتاب** (أي بقايا قليلة من اليهود والنصارى الذين كانوا يعبدون الله وحده)، **ثم يؤتى بجهنم تُعرَض كأنها سراب، فيقال لليهود: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد عزير ابن الله، فيقال: كذبتم، لم يكن لله صاحبة ولا ولد، فما تريدون؟ قالوا: نريد أن تسقينا، فيقال: اشربوا، فيتساقطون في جهنم.**

ثم يقال للنصارى: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد المسيح ابن الله، فيقال: كذبتم، لم يكن لله صاحبة، ولا ولد، فما تريدون؟ فيقولون: نريد أن تسقينا، فيقال: اشربوا، فيتساقطون في جهنم». صحيح: رواه البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري كما فيصحيح البخاري رقم: 7439

معنى ورود النار:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:

«وأما الورود المذكور في قوله تعالى: {وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاّ وَارِدُهَا}، فقد فسره النبي ﷺ في الحديث الصحيح: رواه مسلم في صحيحه عن جابر، بأنه المرور على الصراط، والصراط هو الجسر، فلا بد من المرور عليه لكلِّ من يدخل الجنة».

ما صفات الصراط؟

وصف النبي ﷺ الصراط بعدة أوصاف:

أولا: مدحضة مزلة

في حديث أبي سعيد الخدري ﷺ قلنا: ما الجسر يا رسول الله؟ قال: «**مدحضة مزلة**». صحيح: صحيح البخاري رقم: 7439

ومعنى مدحضة: يعني تُزْلَق فيه الأقدام، ومزَلَّة تعني: تسقط فيه الأجساد، فالصراط مضروب على متن جهنم، من أولها إلى آخرها، ومن الطرف إلى الطرف.

ثانيا: حوله كلاليب وخطاطيف

ومن صفات الجسر التي وردت في الحديث الصحيح أن له كلاليب على حافتيه، روى مسلم أن النبي ﷺ قال: (وفي حافتي الصراط كلاليب معلقة)، كلاليب فيها حياة وروح، وتتحرك حركة دائبة، ولها تمييز وإدراك، فتميز بين من أمرت بأخذه، ومن أُمِرت بتركه، فهي كائنات مأمورة.

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال في صفة الصراط:

«وبه كلاليب مثل شوك السَّعْدَانِ، أما رأيتم شوك السَّعْدَانِ». **قالوا: بلى يا رسول الله، قال:** «فإنها مثل شوك السَّعْدَانِ ، غير ألا يعلم قدر عظمها إلا الله». **صحيح: رواه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رقم:** 6573

وشوك السَّعْدَانِ نبات له شوك، يرعى البدو إبلهم عنده، وهو مشهور في منطقة نجد، فأراد النبي ﷺ أن يقرِّب لهم صورة تعلق هذه الكلاليب بأجساد الناس، كيف تتخطفهم وتعلق بأجسادهم مثل شوك السعدان الذي يَعْلَق، وإذا نَشَب بالجسم لا يخرج بسهولة.

ثالثا: حد الصراط مثل حد الموسى

جاء في حديث سلمان ﷺ عن النبي ﷺ قال:

«**ويوضع الصراط مثل حد الموسى، فتقول الملائكة من تجيز على هذا، فيقول: من شئت من خلقي، فيقولون: ما عبدناك حق عبادتك**». السلسلة الصحيحة رقم: 941

تصور سمك الطريق الذي تسير عليه، مثل حد الموس، وهو مع هذا حوله خطاطيف وكلاليب تنهش من يمر عليه، وتهوي به يمينا وشمالاً، فيتساقط في جهنم إلا من شاء الله.

أول من يجتاز الصراط

قال رسول الله ﷺ:

«ويُضرَب الصراط بين ظهري جهنم، فأكون أنا وأمتي أول من يجيزها». صحيح: رواه البخاري عن أبي هريرة رقم: 7437

وفي رواية أخرى للبخاري:

«فيُضرَب الصراط بين ظهراني جهنم، فأكون أول من يجوز من الرسل بأمته». صحيح: صحيح البخاري رقم: 806

وفي رواية أبي هريرة عند مسلم: «إلى أن تمرَّ أمتي كلها، ونبيكم قائم على الصراط يقول: رب سلِّم سلِّم». صحيح: رواه مسلم في صحيحه عن حذيفة رقم: 329

وهذا من شفقته ﷺ على أمته، وكذلك الأنبياء كما جاء في رواية أبي سعيد، عن النبي ﷺ أنه قال: «**والأنبياء بجنبتي الصراط، وأكثر قولهم: اللهم سلِّم سلِّم**». صحيح: رواه ابن أبي عاصم في كتاب السنة رقم: 634

وعند الصراط لا أحد ينطق من هول الموقف، ولا يتلفظ أحد بكلمة، ما عدا الرسل عندهم القدر على الكلام، لكن كلامهم محدود بعبارة من ثلاث كلمات: «**اللهم سلِّم سلِّم**».

تفاوت النور وسرعة العبور

في حديث ابن مسعود في مستدرك الحاكم:

«**ثم يُقال لهم: انجوا على قدر نوركم**».

لا يستطيع أحد أن يمشي في الظلمة، فإذا أضيء له مشى، وإذا أظلم قام واقفا، لأنه إن غامر بالسير في الظلام سقط، فهو يقوم على صراط كشفرة الموسى في الحِدَّة، والكلاليب حوله، يطفئ نوره فيقف، ثم يوقد مرة فيمشي، وذلك بحسب عمله، ولذا تتفاوت أحوال العباد على الصراط في أمرين أساسيين:

في قدر النور، وسرعة العبور.

أما **قدر النور**، فمنهم من يُعطَى نوره مثل الجبل بين يديه، ومنهم من يُعطَى نوره فوق ذلك، ومنهم من يُعطَى نوره مثل النخلة بيمينه، ومنهم من يعطى دون ذلك، حتى يكون آخر من يُعطَى نوره على إبهام قدمه، يضيء مرة ، ويطفئ مرة.

ونور المؤمنين في الآخرة سببه أنوار التقوى والإيمان التي حصَّلوها في الدنيا، وسارو بها ونشروها بين الناس.

قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ) [سورة الحديد: 28]

قال ابن القيم:

«في قوله تعالى : (تَمْشُونَ بِهِ) نكتة بديعة وهي:

أنهم يمشون على الصراط بأنوارهم كما مشوا بها بين الناس في الدنيا، ومن لا نور له، فإنه لا يستطيع أن ينقل قدماً عن قدم على الصراط، فلا يستطيع المشي أحوج ما يكون إليه».

وأما **سرعة العبور**، فتختلف سرعات الناس في المرور على الصراط باختلاف قوة النور الذي يعطونه، فالنور تابع للسرعة، جاء في حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ:

«**ويقال لهم : امضوا على قدر نوركم ، فمنهم من يمر كانقضاض الكوكب ، ومنهم من يمر كالريح ، ومنهم من يمر كالطرف ، ومنهم من يمر كشد الرِّجل ، يرمل رملاً على قدر أعمالهم ، حتى يمر الذي نوره على إبهام قدمه، تخر يد، وتُعلَّق يد، وتخر رجل، وتُعلَّق رجل، وتصيب جوانبه النار**».

وجاء في وصف آخر رجل ينجو من الصراط كما في حديث ابن مسعود:

«ثم يكون آخرهم رجلاً يتلبط على بطنه، فيقول: يا رب .. لماذا أبطأتَ بي؟! فيقول: لم أبطئ بك، إنما أبطأ بك عملك».

والمراد والدرس المستفاد:

كلما كانت حسناتك أكثر كان مرورك أسرع، وكلما كانت أقل كان مرورك أبطأ، وصرتَ إلى الخطر أقرب، وما زال بيدك اليوم أن تحدد سرعة الغد، وبإمكانك وحدك تسريع نجاتك.

الأمانة والرَّحِم:

لما ذكر النبي ﷺ ذهاب الناس إلى آدم وإبراهيم وموسى ثم عيسى، ثم محمد ﷺ، قال عليه الصلاة والسلام: «**وتُرسَل الأمانة والرحم، فتقومان جنبتي الصراط يمينا وشمالا**». صحيح: رواه مسلم في صحيحه عن حذيفة رقم: 195

فهما لعظم شأنهما وكبر موقعهما، تُصَوَّران مشخَّصتين على الصفة التي يريدها الله؛ لتطالبا كل من يريد الجواز بحقهما، فتقف الأمانة والرَّحِم هناك للأمين والخائن، والواصل والقاطع، لكن .. ما هي الفائدة؟

يحاجان عن المُحِقِّ الذي راعاهما فينجو، وعلى المبطل الذي أضاعهما فيهلك، فكل من خان أمانة فليخف، وكل من قطع رحما فلينتبه، والمراد أن من أدّى الأمانة ووصل الرَّحِم نجا، ومن فرَّط فيها اليوم لم يسلم غدا.

أحوال الناس على الصراط.

قال رسول الله ﷺ:

«**يوضع الصراط بين ظهراني جهنم، عليه حسك كحسك السعدان، ثم يستجيز الناس، فناج مُسلَّم، ومخدوش به ثم ناج، ومحتبس به، ومنكوس فيها**». صحيح: رواه أحمد وابن ماجة وابن حبان عن أبي سعيد كما في الجامع رقم: 8189

أصناف المارين على الصراط أربعة:

الأول: ناجٍ مُسلَّم

أي مسلَّم من الأذى بلا خدوش، وهؤلاء هم صفوة المؤمنين.

الثاني: ناجٍ مخدوش

أي أصابته لفحة من جهنم أو نالته الكلاليب والخطاطيف بخدوش، قبل أن ينجو، وفي رواية ابن خزيمة: «**مخدوجٌ به**»، والخدْج: النقص أي يُنقَص من جسمه جزء، بسبب ما تقتطعه منه الخطاطيف والكلاليب المأمورة به.

الثالث: محتبَس به

أي يُحبس على الصراط، فيظل في رعب وخوف حتى يُطلَق سراحه، فيجتاز الصراط.

والرابع: الهالك في النار

وقد وصفه النبي ﷺ بأوصاف، منها: «**منكوس فيها**»، ومنها: «**مكرْدَس في النار**»، وقال: «**مكدوسٌ في نار جهنم**» أو «**مكدوش**».

والمنكوس هو المقلوب على رأسه، فرأسه إلى أسفل، ورجلاه إلى أعلى، ليخر بهذه الصورة إلى قعر النار.

والمكَرْدَس هو من جُمِعَت يداه ورجلاه، قبل أن يُلقَى في جهنم، مِنْ كردست الدواب: إذا ركب بعضها فوق بعض.

والمكدوس هو الذي تكدَّس، أي دُفِع من وراءه، فسقط في النار.

والمكدوش هو الذي يساق سوقا شديدا حتى يُكبَّ على وجهه في النار.

وهي جميعا أوصاف تصف بدقة مصير الهالكين بما يخلع القلب من شدة الخوف، ويردعه عن التقصير والسقوط في هاوية التفريط.

الواجب العملي:

الاستقامة على الصراط المعنوي في الدنيا: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ} [الأنعام:153] ، هو شرط عبور الصراط الحسي المنصوب فوق النار في الآخرة، فالصراط الثاني يعبره الناس غدا بحسب أعمالهم وأحوالهم اليوم، وكلاهما صعب، لذا قال الإمام أبو حامد الغزالي:

«الاستقامة على الصراط في الدنيا صعب كالمرور على صراط جهنم، وكل واحد منهما أدق من الشعر، وأحدُّ من السيف»، ومما يؤيِّد صعوبة الاستقامة قول النبي ﷺ: «استقيموا ولن تحصوا».

أي ولن تطيقوا أن تستقيموا حق الاستقامة، ولن تطيقوا عمل كلِّ ما لله عليكم، ولكن اجتهدوا في ذلك قدر الاستطاعة، فما لا يدرك كله لا يُترَك كُلُّه.

ومن أوجه العمل بالحديث ألا يتوهم عبد أنه استقام بالكلية، فيقع في العجب والغرور اللذين هما سر هلاك العبد.

10. القنطرة

في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال:

قال رسول الله ﷺ:

«**يخلُص المؤمنون من النار، فيُحبَسون على قنطرة بين الجنة والنار ، فيُقَصُّ لبعضهم مِنْ بَعْضٍ مظالم كانت بينهم في الدُّنيا، حتى هُذِّبُوا ونُقُّوا أُذِن لهم في دخول الجنة**». صحيح: صحيح البخاري رقم: 6535

ذكر الإمام القرطبي أن الصراط صراطان، فقال في كتابه التذكرة:

«اعلم -رحمك الله- أن في الآخرة صراطين:

أحدهما: مجاز لأهل المحشر كلهم، ثقيلهم وخفيفهم إلا من دخل الجنة بغير حساب، أو من يلتقطه عنق النار، فإذا خلص من هذا الصراط الأكبر الذي ذكرناه -ولا يخلص منه إلا المؤمنون الذين علم الله منهم أن القصاص لا يستنفد حسناتهم- حُبِسوا على صراط آخر خاص لهم، ولا يرجع إلى النار من هؤلاء أحد إن شاء الله؛ لأنهم قد عبروا الصراط الأول المضروب على متن جهنم الذي يسقط فيها من أوبقه ذنبه، وأربى على الحسنات بالقصاص جرمه».

ومعنى كلام الإمام القرطبي أن الكل سيمر على الصراط، فلا يخلص من الصراط بسلام إلا المؤمنون الذين علم الله أن القصاص لا يستنفد حسناتهم، فإذا مروا على الصراط حُبِسوا بعده على القنطرة، حيث يُقتَصُّ للمظلوم من الظالم.

ولا يرجع أحد من القنطرة إلى النار ، فكل من عبَرَ الصراط المضروب فوق جهنم نجا، ويسقط على الصراط في النار من أثقلته ذنوبه ومظالم العباد، وعلِم الله أنَّ القصاص سيستنفد حسناته حتى ترجح كفة سيئاته، لذا يهوي به في جهنم.

وصدق أحمد بن حرب حين قال:

«يخرج من الدنيا أقوام أغنياء من كثرة الحسنات، فيأتون يوم القيامة مفاليس من أجل تبِعات الناس».

القصاص للبهائم فكيف بالبشر؟!

أخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: «لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يُقادَ للشاة الجلحاء من الشاة القرناء». صحيح: صحيح مسلم رقم: 2582

والشاة الجلحاء هي الجمّاء التي لا قرن لها، فهذه يقتص الله لها من الشاة التي نطحتها، فكيف لا يقتص الله للمضروب ظلما من عباده، أو للمقتول ظلما من أوليائه؟!

وقد علَّم النبي ﷺ الصحابة حتمية القصاص بصورة عملية من خلال تعليقه على موقف من المواقف الحياتية اليومية التي تعرضوا لها، فلم تلفت نظر أحد من الصحابة، إلا رسول الله ﷺ الذي استخلص منها الدروس والعِبَر، ثم أهداها لنا، فعن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ رأى شاتين تنتطحان، فقال:

«**يا أبا ذر .. هل تدري فيم تنتطحان؟**».

قال: لا. قال:

«**لكن الله يدري، وسيقضي بينهما**». حسن: رواه أحمد في مسنده رقم: 21438

وفي موقف آخر حدث أمام أبي ذر رضي الله عنه، وفيه أن رسول الله ﷺ كان جالسا، وشاتان تعتلفان (تأكلان)، فنطحت إحداهما الأخرى، فأجهضتها، فضحك رسول الله ﷺ، فقيل له: ما يضحكك يا رسول الله؟ قال:

«**عجبتُ لها، والذي نفسي بيده، ليُقادَنَّ لها يوم القيامة**». حسن: رواه أحمد في المسند رقم: 21511

وعجيبٌ حالهم اليوم من يظلمون، ثم إلى ~~رحلات~~ الحج والعمرة يتسابقون، وعلى الصدقات يحرصون**!** وكأنهم ببعض الكتاب يؤمنون وببعضه يكفرون، وتغافلوا عن أن الله قد يتجاوز عن حقه، لكن لا يتسامح في حقوق عباده، فقال رسول الله ﷺ:

«**الظلم ثلاثة فظلم لا يغفره الله، وظلم يغفره، وظلم لا يتركه.**

فأما الظلم الذي لا يغفره الله فالشرك. قال الله: {إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ}.

وأما الظلم الذي يغفره فظلم العباد أنفسهم فيما بينهم وبين ربهم.

وأما الظلم الذي لا يتركه الله، فظلم العباد بعضهم بعضا حتى يدبر لبعضهم من بعض» .

صحيح الجامع رقم: 3961 والصحيحة رقم: 1927

واجبك إن كنتَ ظالما؟!

أوصانا رسول الله ﷺ:

«**من كانت له مظلمة لأخيه من عِرْضه أو شيء، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ اليَوْمَ، قبل أن لا يكون دينار ولا درهم، إن كان له عمل صالح أُخِذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أُخِذ من سيئات صاحبه، فحُمِل عليه**».

صحيح: رواه البخاري عن أبي هريرة كما في صحيح البخاري رقم: 2449

أي فليبادر إلى استرضاء من ظلمه، ويسأله أن يجعله في حلٍّ، قبل أن لا يكون دينارٌ ولا درهم، وتكون إعادة الحقوق بالحسنات والسيئات، فإن لم يتمكن من تحلله مما أصاب من عِرْضه بغيبة وغيرها، فليدْعُ له وليستغفر له.

وأعدل خلق الله رسول الله ﷺ، وهو الذي حكم على نفسه قبل أن يحكم عليه غيره، وأنصف الناس من نفسه، فكان في آخر أيام حياته يقول:

«**اللهم إنما أنا بشر، فأيما رجل من المسلمين سببته، أو لعنته، أو جلدته، فاجعلها له زكاة ورحمة**». صحيح: رواه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رقم: 2601

وقد أجاب العلماء عن سؤال: كيف يسُبُّ النبي ﷺ أصحابه أو يلعنهم، فقالوا:

المراد بذلك من استحق منهم السب واللعن بظاهر الأمر، لكنه لم يكن أهلا لذلك في الباطن، والرسول ﷺ مأمورٌ بالحكم بالظاهر، أو أن ما وقع من سبِّه ودعائه عليهم ليس بمقصود، بل مما جرت به عادة العرب في كلامهم بغير نية.

وقد نفَّذ رسول الله ﷺ هذا القصاص بصورة عملية، وأول من نفذه عليه: نفسه! واسمع:

كان النبي ﷺ يسوّي صفوف أصحابه يوم بدر، وفي يده قِدْح (سهم) يعدل به القوم ، فمرَّ بسواد بن غزية، وهو متقدم عن الصف ، فطعنه في بطنه بالقدح، وقال: «استو يا سواد»، فقال : يا رسول الله! أوجعتني، وقد بعثك الله بالحق والعدل، فأَقِدني، فكشف رسول الله ﷺ عن بطنه، وقال: «استقِد»، فاعتنقه سواد فقبَّل بطنه، فقال:

«ما حملك على هذا يا سواد؟».

قال : يا رسول الله! حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك: أن يمس جلدي جلدك.

فدعا له رسول الله ﷺ بخير.

انظر لأعظم قائد والنبي المرسل، يكشف بطنه ليقتص منه جندي من جنوده؟

وما الذي فعله رسول الله ﷺ؟

لقد طلب من جندي من جنوده طلبا مشروعا، وهو الاستواء في الصف.

وبأي شيء أوجع النبي هذا الصحابيَّ؟

بعصا صغيرة أو قضيب سواك!!

فما أعظم ذلك الموقف لو فهمنا مغزاه ومراميه اليوم.

لكن هل عمل الناس بمقتضى هذا الحديث؟

هل تحلل الظالمون من المظلومين؟!

هل ردّوا الحق إلى أصحاب الحقوق المهضومين؟!

انظروا إلى الواقع المشين، يأتكم الرد المبين.

القصاص من صاحب الدَّيْن

بل من مات وعليه دَيْن، يأخذ أصحاب الأموال من حسناته بمقدار ما لهم عنده، ففي سنن ابن ماجه بإسنادٍ صحيح عن ابن عمر ﷺ قال:

قال رسول الله ﷺ:

«**من مات وعليه دينارٌ أو درهم قُضِي من حسناته، ليس ثَمَّ دينارٌ ولا درهم**».

صحيح: رواه ابن ماجة عن ابن عمر كما في صحيح الجامع رقم: 6546